نوابغ الفكر العربي

١٧

الخنساء

بقلم الدكتورة بنت الشاطئ



دار المعارف

نوابغ الفكر العربي

١٧

الخنساء

بقلم الدكتورة بنت الشاطئ

أستاذة اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس

قيل لجرير : من أشعر الناس ؟
قال : أنا لولا الخنساء . . .

طبعة ثانية ، مع إضافات جديدة



دار المعارف

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ذكرت فى الطبعة الأولى ، أنى ترددت طويلا قبل أن أضع « الخنساء » بين نوابغ الفكر العربى ، فالخنساء شاعرة لا مفكرة ، ومكانها الصحيح عندى بين أعلام الأدب العربى لا بين نوابغ مفكريه ، إذ الفكر فيما نعرف اليوم ثمرة الجهد العقلى ، أما الشعر فتعبير فنى ونشاط وجدانى .

وقد ناقشت « دار المعارف » طويلا فى هذا الموقف ، فكان العذر أن الشعر العربى ، وبخاصة فى العصر الجاهلى ، ديوان أفكار القوم ، والمعبر عن حياتهم العقلية والأدبية معا . وبهذا الفهم لمكان الشعر فى عصر الخنساء ، أمكن وضعها فى هذه المجموعة التى تصدرها « دار المعارف » لنوابغ الفكر العربى .

* * *

والطبعة الأولى ظهرت عام ١٩٥٧ ، وقد أتيح لى بعد ظهورها ، مزيد عناية بدراسة الشعر الجاهلى ، الذى كان موضوع الجزء الأكبر من كتابى « قيم جديدة للأدب العربى » الذى نشر عام ١٩٦١ ، والبحث الذى نشرته عن « المرثية الجاهلية » فى حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ، سنة ١٩٦٢ .

وقد غيرت هذه الدراسات من بعض آراء لى سابقة فى مراثى الخنساء ، كما أضافت جديداً إلى ما كتبته عنها من قبل .

وأذكر كذلك ، أنى حرصت على تتبع ما ينشر عن « الخنساء » وقرأت كتاباً جديداً عنها طبع فى بغداد سنة ١٩٦٢ ، وعنوانه « الخنساء فى مرآة عصرها »

وقد تصدى مؤلفه الفاضل « الأستاذ إسماعيل القاضي » لمناقشة ما جاء في كتابي عن زواج الخنساء ، ومراثيها في شقيقها معاوية . وإذا كنت لا أزال عند موقفي الأول ، فالذي لا ريب فيه ، أن هذه المناقشة ألزمتني بمراجعة المصادر التي أخذت منها مادة الموضوع . فأفادتني هذه المراجعة بما حررت من بعض مسائل كنت تناولتها على عجل ، وبما هدتني إلى أخرى لم آذن التفت إليها من قبل .

وأشهد أني ما زعمت ، وما كان لي قط أن أزعم ، أني أقول الكلمة الأخيرة في دراسة كهذه ، أعترف بقصورها وضيق مجالها الذي يحدده صدورها في سلسلة معينة . وقد حاولت جهدي ، أن أعوض قصور المجال ، بهذا التخطيط المرسوم للبحث ، مع بيان دقيق لمصادره ومراجعه . وما زلت أطمع في أن تتاح الفرصة لدراسة أرحب أفقاً وأعمق تناولا . والله الموفق .

بنت الشاطئ

مصر الجديدة

فبراير ١٩٦٣

الفصل الأول

عصر الخنساء

١ — الجاهليون والمخضرمون

٢ — الشعر الجاهلي والشك فيه

٣ — بيئة الخنساء

الفصل الأول

عصر الخنساء

١ ـــ الجاهليون والمخضرمون :

الحديث عن عصر «الخنساء» يبدو سهلا قريب المنال ، فإن تكن «تماضر» شهدت مبعث النور فى الجزيرة ، ورأت انحسار الظلمات وانهيار الوثنية ، فقد عاشت الشطر الأهم والأحفل من حياتها ، فى أخريات العصر الجاهلى ، ولم تدرك الإسلام إلا بعد أن اكتملت حياتها الفنية بوجه خاص ، وشارفت نهايتها .

ومن أجل هذا جاز لنا أن ننسبها فنياً إلى العصر الجاهلى ، وإن كانت حياتها قد امتدت فى الواقع إلى ما بعد الإسلام سنين عدداً .

وإذا حقّ لمؤرخى الأعلام أن يسلكوا « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمى » فى عداد المخضرمين ، فإن المؤرخ الأدبى لا يهون عليه أن يحسب « الخنساء الشاعرة » منهم ، وإنما هى عنده جاهلية خالصة .

قال « ابن قتيبة » : « وهى جاهلية ، كانت تقول الشعر فى زمن النابغة الذبيانى »[١] وهى جاهلية كذلك ، عند « ابن سلام » .

وشأنها فى ذلك شأن « لبيد بن ربيعة » الذى عاش فى ظل الإسلام طويلا ، لكنه كف عن قول الشعر منذ أسلم ، فلم : يقل من الشعر — فيما رووا — إلا أبياتاً ثلاثة .

وليس الأمر كذلك مع « حسان بن ثابت » مثلا ، إذ امتدت حياته الفنية فى العصر الإسلامى ، وشارك بشعره فى المعركة التاريخية الكبرى بين التوحيد والوثنية ، وكان شاعر الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الإسلام ، كما كان شاعر الخزرج فى الجاهلية ، ومن هنا صح أن يعد الشاعر المخضرم بحق .

---

(١) « الشعر والشعراء » ١/٣٠٢ ط دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣٤٦ هـ .

وإذ تحدد عصر « الخنساء الشاعرة » بأخريات الجاهلية ، فقد أعفينا بذلك من التعرض للمشكلة الفنية الكبرى التى تواجهنا حين نتحدث عن شاعر مخضرم ، عاصر شعره الانقلاب العنيف ، وشهد أخطر ثورة عرفتها الجزيرة العربية فى تاريخها الطويل ، وأعنى بها ظهور الإسلام .

وموضع الدقة فى الحديث عن المخضرمين ، هو صعوبة التوفيق بين تقديرنا لأثر الحادث الفذ الذى غيّر مجرى التاريخ الدينى والأدبى والاقتصادى والاجتماعى للعرب أجمع ، وبين ما يجب تقديره من خطأ التسليم بأن الشعر قد تغير بين يوم وليلة ، وأن الشاعر الجاهلى قد أبْدِل خلقاً فنيًّا جديداً [١] .

ويزيد الأمر دقة وحرجاً ، تلك المشكلة الأخرى التى ظلت زماناً موضع الخطأ ومظنة الاشتباه ، وهى مشكلة « موقف الإسلام من الشعر » بعد ما نزلت الآيات القرآنية الكريمة : « وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغى له »[٢] .

« والشعراءُ يتبعُهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كلِّ وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »[٣] .

فلقد تعجل غير قليل من المؤلفين ، فصرفوا هذا الحكم على الشعر بعامة ، دون أن يلتفتوا إلى ما كان من احتفاء الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالشعراء إلى حدٍّ جعله يخلع بردته على الشاعر « كعب بن زهير »[٤] إثر إنشاده « بانت سعاد »[٥] ويدعو للنابغة الجعدى ألا يفضِ الله فاه[٦] ، كما جعل — صلى الله عليه وسلم — من الشعر سلاحاً ذا خطر فى معركته المجيدة ، واتخذ له شعراء

---

(١) عالجت قضية الخضرمة فى كتاب « قيم جديدة للأدب العربى » ص ٧٧ : ٩٠ ط دار المعرفة بالقاهرة ١٩٦١ .

(٢) من آية ٦٩ سورة « يس » .

(٣) الآيات ١٢٤ : ١٢٦ من سورة «الشعراء» .

(٤) « الاستيعاب » ، و « السيرة » لابن هشام .

(٥) اطلبها فى ديوان كعب بن زهير ص ٦ ط دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ .

(٦) الاستيعاب : ٤/١٥١٦ ط نهضة مصر .

اختصوا به ، ومنهم «حسان بن ثابت» الذى حدثوا أن الرسول كان يستحثه على هجو المشركين فيقول : «قل وروح القدس معك» [١] .

ولو كانت «الخنساء» شاعرة مخضرمة ، لما أعفيت هنا من التعرض لهاتين القضيتين النقديتين ، وتتبع الآراء والأقوال فى كل منهما ، ومحاولة استبانة وجه الحق فيهما . أما وشاعرتنا جاهلية ؛ فحسبي هذه الإشارة العجلى ، أمهد بها للحديث عن عصرها الفنى وهو نصف القرن الأخير من العصر الجاهلى تاركة لمن يشاء أن يقرأ كتاب «قيم جديدة للأدب العربى» وقد عالجت فيه القضيتين بمزيد تفصيل وبيان .

٢ ـ الشعر الجاهلى والشك فيه

على أن هذا التحديد ، لن يعفينا من التعرض لمشكلات أخرى تواجه دارس الشعر الجاهلى :

وأول ما يلقانا منها ، قضية الشك فى هذا الشعر ، وهى قضية قديمة أتعبت الرواة والنقاد من زمان ، وشغل بها المؤلفون منذ عصر التدوين ، فابن سلام ، يبدأ كتابه «طبقات الشعراء» [٢] بحديث طويل عن نحل الشعر وأسبابه ، ويصف ما كان من عبث الأهواء والرواة به . و «أبو العلاء المعرى» يعرض فى جنة الغفران ثم فى الجحيم ، موكباً من الشعراء ، يسألهم عما نسب إليهم من شعر فينكرونه ، ويتهمون رواته [٣] .

على أن المسألة لم تأخذ وضعاً خطيراً حتى نقلها أستاذنا «الدكتور طه حسين» إلى مجال الدرس الجامعى ، وأفردها بالبحث المستقل فى كتابه المشهور ، وكان أهم ما استند إليه فى اتهامه للشعر الجاهلى ، هو أن ما وصل إلينا منه موحد اللغة ، مع أن أصحابه ينتمون إلى قبائل شتى ، مختلفة اللغات متعددة

---

(١) «السيرة» لابن هشام ، والاستيعاب ١/٢٤٥

(٢) راجع الصفحة ٣٩ وما يليها طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ — ذخائر .

(٣) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء ط ثانية ذخائر — فى مواضع متفرقة .

اللهجات. وتعليل ذلك عنده، أن هذا الشعر قد نُحل بأخَرَة، بعد أن سادت لغة قريش بنزول القرن الكريم بها. أما أسباب هذا الانتحال ودواعيه، فقد بين الأستاذ الدكتور، الدور الخطير الذى لعبته العصبية والسياسة والدين والشعوبية، فى هذا الميدان. كما أوضح ما للرواة، من نشاط فى وضع الشعر، فى عصر التدوين المفتون بتسجيل تراث العرب الفنى، مما أغرى الرواةَ باحتراف «رواية الشعر» واتخاذها مهنة تدرّ عليهم الرزق وتكسبهم المجد، فرحل الراحلون منهم إلى البادية، وانطلقوا فى أنحاء الجزيرة يجمعون ما وعى الأبناء عن الآباء والأجداد من شعر الجاهلية، ثم عادوا يباهون بما حفظوا، غير متحرجين من الإضافة إليه استكثاراً من البضاعة، واستزادة من الربح المادى والأدبى، ولم تكن الحياة الدينية إذ ذاك بالتى تزع أمثال أولئك المرتزقة، وهم يعيشون فى عصر تحلل وفساد.

كل هذا يقال، ولكن يقال معه: إن دعوى الشك فى الشعر الجاهلى جملة، لا ينهض بها ما نسلم به من أسباب النحل ودواعيه. وإنما أقصى ما يمكن أن تعطيه هذه الأسباب، هو أنها أضافت إلى الشعر الجاهلى ما ليس منه، لكن ليس إلى ذلك المدى الواسع النطاق الذى يجعل شعر العصر كله موضع الاتهام.

ويضاف إليه، أن حركة الجمع والتدوين لتراث الجاهلية، قامت أول ما قامت، مناهضة للغزو الشعوبى الذى تعرضت له العربية ابتداء من العصر العباسى، لما فتحت الأبواب أمام التيارات الدخيلة الوافدة مع الأعاجم، الذين انتصرت الدعوة العباسية بسيوفهم، ومكّنت لهم من النفوذ اعترافا بجميلهم. وأمام ذلك الغزو الضارى هب الحريصون على الإسلام، يجمعون تراث العربية ويدونونه حماية للفصحى: لغة القرآن الكريم، كتاب الإسلام.

فبقدر الحاجة إلى ذلك التراث، لمعرفة أصيل مفردات العربية وطرق اشتقاقها ونحوها وأساليبها فى التعبير والبيان، كان الحرص الشديد على فحص بضاعة الرواة. وإذ كانت الغاية من الحركة خدمة كتاب الإسلام الخالد، وفهم مفرداته وإعرابه وبيانه، أضفى ذلك على الرواية حرمة، يكفى لإدراكها أن

نقرأ فى ترجمة «أبى عمرو بن العلاء» ــ من أئمة الرواة ــ أنه أحرق مدوّناته من الشعر ــ وكانت تملأ بيتاً له إلى قريب من السقف [١] ــ لما عرف أن فيما روى، بيتاً منحولا للأعشى، وظل ما عاش يستغفر الله.

واستطاع خبراء الشعر فى عصر مبكر، أن يزنوا الرواة بأدق موازين التجريح والتعديل، فميزوا الوُضّاع منهم، والأمناء الثقاة..

ويقال كذلك : إن للشعر فى عصور التدوين الأولى، علماءه الخبراء به، يعرفونه بكثرة المدارسة، كما يعرف الجوهرى صنوف الجوهر، وكما يعرف الصيرفى الدرهم والدينار، وهو قول «ابن سلام» فى الصفحة الأولى من كتابه [٢] وبمثل هذه الخبرة الفنية الدقيقة، رأينا العلماء يرفضون من الشعر ما يرفضون، ويقبلون ما يقبلون [٣].

وقد كان هؤلاء العلماء، شديدى التنبه لما نال الشعر الجاهلى من عبث الأهواء ومخترعات الرواة، لكن هذا التنبه لم يحل دون اطمئنانهم إلى المروىّ جملة، واشتغالهم بالشعر الجاهلى دراسة وتأريخاً ونقداً.

وربما أمكن أن يقال أيضاً: إن الذين انتحلوا الشعر وأضافوه إلى الجاهليين التماساً للمنفعة فى عصر التدوين، أو إرضاء لأهواء العشائر والأحزاب والعصبيات أو.. أو.. كانوا بلا ريب يحرصون أشد الحرص على أن يكون هذا الشعر المنحول، ممثلا للذى سلم إلى عهدهم من تراث الجاهلية الفنى، كيما تجوز نسبته إلى شعرائها، وحتى يفوت علماءَ الشعر إدراكُ زيفه، أو يشكل أمره عليهم بعض الإشكال، كما نص على ذلك «ابن سلام» [٤]، وهذا يجعل للشعر المنحول حظه من الاعتبار، من حيث دلالته على عصره، وتمثيله للخصائص الفنية للشعراء الجاهليين

يقال هذا كله، فلا يبقى بعده إلا ما ذكره «الدكتور طه حسين» من

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١ / ٣٢١ ط القاهرة ١٩٤٨ —

(٢) «طبقات الشعراء».

(٣) راجع الفصل الذى كتبناه عن «الرواية» فى كتاب «الغفران» دراسة نقدية» صفحة ٢٤٨ ط ثانية المعارف ١٩٦٢.

(٤) طبقات الشعراء ص ١٤ ط بريل.

كون الشعر الجاهلى لا يظهر فيه ما ثبت تاريخيًّا من اختلاف لهجات القبائل التى ينتمى إليها الشعراء الجاهليون . ولا نكتفى فى الرد على هذا بأن بقايا تلك اللهجات قد وُجِدت فعلا ، وما تزال كتب النحو واللغة والأدب تحمل آثاراً منها فى الشواهد المحفوظة ، بل نقول — كذلك — إن الطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية تجعل لغة الفن المعبر عن الوجدان ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية ، وهذا أصلٌ لا مفرّ من التسليم به ولو لم نمض إلى بعيدِ ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، من أنه كان هناك فعلا لغتان لعرب الجزيرة ، إحداهما ملحونة وهى لغة الحديث ، وأخرى معربة سليمة وهى لغة الأدب .

ونحن اليوم نلتقى فى المجامع والمجالس ، فنتبادل الحديث بلهجات شتى : صعيدية وساحلية ، ريفية وقاهرية ، لكننا إذا كتبنا أو تحدثنا فى مجتمع رسمى ، استعملنا لغة موحدة لا يبدو فيها أثر لاختلاف لهجاتنا . وهذه ظاهرة عامة ، تشهدها مناقشات الجماعة ، فى برلمان أو مجلس ، أو ساحة القضاء ، فإذا قرئت محاضر الجلسات لم يبدُ فيها أثر من تعدد اللهجات المحلية .

وشعراء العربية اليوم ، يتكلمون بلهجات متعددة شتى ؛ ويعيشون بها فى بيئاتهم ، لكنهم فى الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ، ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو نستريب فى نسبتها إليهم ، بدعوى أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية .

وأيًّا ما كان الأمر فى تباعد ما بين لهجات القبائل العربية قبيل الإسلام ، فالذى لا شك فيه أن وجود احتمالٍ لما ذكرتُ من مثنوية اللغة ، يكفى وحده للرد على إنكار الشعر الجاهلى لعدم تمثيله للهجات .

ولم ننس أن الاختلاف فى الشعر الجاهلى لم يكن بين لهجات لغة واحدة فحسب ، وإنما كان أيضاً خلافاً بين أكثر من لغة . لكنا لا ننسى كذلك أن لغات الجزيرة كانت تتقارب رويداً رويداً فى أخريات الجاهلية ، بفضل التبادل التجارى ، والمواسم الدينية ، والأسواق الأدبية . وقد أوشك هذا التقارب أن يصير إلى ما يشبه اللغة الموحدة قبل الإسلام . والذى بين أيدينا من الشعر الجاهلى ، لا يتجاوز عمره القرن الثانى قبل المبعث ، وقد جاء الإسلام

وشعراء القبائل ، يجتمعون فى الموسم بمكة ، ويتبارون فى مجال القول . وربما احتكموا إلى شاعر فحل كالنابغة ، ما كان ليستطيع أن يفهم عنهم — فضلا عن أن يحكم بينهم — لو أن كل واحد منهم كان يقول الشعر بلغة خاصة .

وإذا لم تكن الوحدة السياسية بين قبائل العرب قد تحققت ، فإن الوحدة اللغوية كانت فى سبيل الظهور ، بهجرة القحطانية إلى الشمال ، وغلبة اللغة العدنانية ، منزل المهاجرين ، ومثابة الحج ، وملتقى التجار والشعراء من شتى أنحاء الجزيرة .

وقد بلغ من تقدير المستشرقين لأثر هذا التقارب اللغوى الذى يشبه التوحد ، أن آثروا تحديد ما يسمى « بالمحيط العربى » قبيل الإسلام ، بحدود اللغة العربية . وفى ذلك يقول المستشرق « بلاشير » فى تعريف المحيط العربى : « إن أفضل أساس لتحديد المحيط العربى حتى أواخر القرن السادس الهجرى هو الأساس اللغوى . . فلنطلق اسم العرب على جماعة يتخذون فى نظرنا اللغة العربية أداة للتخاطب والتفاهم » [١] .

وبعد أن يشير إلى ما قيل من اختلاف لغات العرب ، يمضى فى بيان هجرات قبائل الجزيرة ، وما كان لهذه التنقلات الجماعية من آثار ، فيقول : « والتوسع اللغوى سابق على ما يُظن للتاريخ الميلادى ، وعلى كل حال ، فقد أصبح استعمال العربية زمن النبى محمد (ص) أمراً شائعاً ، إن لم يكن عند قبائل اليمن وحضرموت ، فعلى الأقل عند القبائل الضاربة فى تهامة أو شواطئ البحر الأحمر ، وفى الداخل فى المنطقة الواقعة بين نجران والجوف اليمنى . ولم يرد فى المصادر القديمة التى تقص مقابلة الرسول (ص) سنة ٦٣١ (م) للوفود القادمة من الجنوب ، أن الوفود اليمنية استعملت فى التخاطب اللغة العربية الجنوبية ، كما أن الدعاة الذين أوفدهم الرسول (ص) لهداية قبائل تلك المنطقة ، كانوا يتكلمون بالعربية فى دعوة القبائل الضاربة على تخوم اليمن » .

---

(١) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربى ص ٢٧ و ٢٨ من الترجمة العربية ، للدكتور ابراهيم الكيلانى — ط دمشق ١٩٥٦ .

وليس معنى الاطمئنان إلى هذا التوحد اللغوى ، أن آثار اللغة الجنوبية قد انمحت تماماً ، فبلاشير نفسه لم يجرؤ على هذا الزعم ، وإنما أراد أن يقرر : «أن حركة التعريب قد توصلت إلى زحزحة اللغة الجنوبية جزئيًّا أوكليا ، فالمهم تقرير توفر الشروط فى القرن السادس ، لنشوء علاقات متواصلة بين المحيطين العربى ، والعربى الجنوبى ، لا يعوقها اختلاف اللهجات » .

و « الخنساء » قد عاشت فى هذه الفترة التى تقاربت فيها لغات الجزيرة ، ولم يكن يعوز هذا التقاربَ اللغوى فى المحيط العربى ، لكى يتم خطوته الواسعة نحو التوحد ، إلا أن ينزل كتاب الإسلام الخالد بلغة قريش ، فيبهر أمراء البيان فى أنحاء ذلك المحيط ، إلى حد الإعجاز .

وبقيت مع ذلك آثار من لهجات القبائل ، فى الحروف السبعة ، إلى أن اجتمع المسلمون على قراءة كتابهم السماوى بلغة موحدة ، فى « مصحف عثمان ».

٣ ـ بيئة الخنساء

ونفرغ من قضية الانتحال ، فتلقانا أخرى هى اعتبار الجاهلية عصراً أدبياً عاماً موحد الخصائص ، يبدأ به تقسيم الأدب إلى عصور ذات حدود زمنية فاصلة ، وهو تقسيم جاهدت الدراسة الجامعية الحديثة لبيان الخطأ فيه ، وأبت أن تسلم أن يوماً بعينه يمكن أن يكون حدًّا حقيقيًّا فاصلا بين عصرين من عصور الأدب ، أو أن الحياة الأدبية فى عصر ما ، كالعباسى أو الأموى ، يمكن أن تندرج تحت حكم واحد ، على اتساع الرقعة وتباين الأقاليم واختلاف صلتها بالعربية والإسلام : قرباً وبعداً ، وأصالة وحداثة . . . لكن هذه المشكلة لا تبدو معقدة فى عصر « الخنساء » مثلما تبدو فيما تلاه من عصور ، إذ الأدب العربى قبل الإسلام لا يزال فى جزيرته ، لم يخرج منها إلا لماماً وفى نطاق ضيق ، مع التجار أو الشعراء الوافدين على ملوك البلاد المجاورة . ومن هنا لم تخالطه عناصر أجنبية إلا فى أضيق الحدود التى لا تنجو منها لغة ما دامت تعيش . ذلك أن عزلة الجزيرة

نسبيا — مع مشاق السفر ، وصعوبة الانتقال على الإبل عبر بوادٍ جرداء موحشة السبل — حفظت للعربية قبل الإسلام ، مقوماتها الأصيلة وخصائصها المميزة ، وظلت كذلك أمداً بعد انطلاقها من جزيرتها عقب الفتوح الإسلامية الكبرى ، وتدفق موجات الهجرة فى إثر الجيوش الفاتحة ، مما جعل الرواة واللغويين فى عصر التدوين ، يلتمسون العربية فى موطنها الأصيل ، ويقفون بالاستشهاد عند عصر مبكر ، لا يتجاوزونه .

وهم — مع ذلك — لم يجعلوا شعراء الجاهلية سواء فى هذا ، بل قصروا الاستشهاد على الخُلَّص منهم الذين لم يختلطوا بالأمم الأخرى . وأبوا — مثلا — أن يستشهدوا بشعر شاعر كعدى بن زيد ، لأن إقامته بالحيرة قد « ألانت منطقه وسهلت لسانه » وباعدت بينه وبين مهد الفصحى الأصيلة ، (١)

فأنت تراهم إذن ، قد رفضوا أن يدرجوا شعراء العصر الجاهلى تحت حكم واحد ، رغم الذى ذكرنا من قلة حظه من الاختلاط ، وبعده نسبيًّا عن التأثر بالمؤثرات الخارجية .

« وعصر الخنساء » — وإن كان يسبق ظهور مشكلة الاختلاط التى صار معها تقسيم الأدب إلى عصور زمنية ، خطأً علميًّا وتاريخيا — قد تميزت فيه مع ذلك بيئاتٌ لكل منها سمات خاصة وطابع مميز منشؤه الإقليم والبيئة ، ولعل « ابن سلام » هو أسبق المؤلفين — فيما نعلم — إلى تقدير أثر البيئة الخاصة ، حين جعل شعراء القرى العربية : المدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمامة ، والبحرين ، طبقة خاصة (٢) .

وإذا كان المتأخرون فى تقسيمهم الأدب عصوراً زمنية ، قد تابعوا الغربيين وبخاصة « بروكلمان » الذى قسم تاريخ الأدب العربى إلى عصر ما قبل

---

(١) وانظر « فحولة الشعراء للأصمعى » ٤٣ ط المنيرية بالأزهر .

(٢) نما هذا الملحظ ونضج مع الزمن ، فى مثل كتاب (الذخيرة) لابن بسام ، و (الخريدة) العماد الإصفهانى الذى قسم فيها شعراء عصره ، باعتبار أقاليمهم . وقد طبعت القاهرة من « الخريدة » القسم الخاص بشعراء مصر ، كما نشر المجمع العلمى بدمشق القسم الخاص بشعراء الشام ، ثم نشر مجمع بغداد قسم « شعراء العراق » .

الإسلام ، عصر النبى وصدر الإسلام إلى سقوط الأمويين إلخ ، فإن من المستشرقين أنفسهم من كرهوا أن يأخذوا الأدب الجاهلى أخذاً لمّاً ، لا يفرق بين شاعر لم يخرج من باديته ، وآخر مقيم بالحجاز يختلط بالتجار العائدين من اليمن والشام فى رحلتى الشتاء والصيف ، وثالث شد رحاله إلى أمراء غسان أو ملوك الحيرة : فالدكتور « بلاشير » يصرح فى مقدمة كتابه ، أنه سينحرف فيه « عن كتاب بروكلمان فى تحديد العصور الأدبية ، وليس من العسير علينا أن نتبين ما يؤدى إليه هذا التقسيم من التباسات خطيرة ، فهو عوضاً عن أن يكون مستوحى من اعتبارات أدبية صرفة ، لا يعتبر فى الحقيقة إلا ثورات السلالات الملكية ، أو الحوادث التى كان لها دون ريب ، أثر فى تاريخ الإسلام ، بيد أن صلتها بالأدب تبدو غير متوافقة ولا حقيقية » [(١)] .

وميز « نلّينو » فى كتابه (تاريخ الآداب العربية) أربع بيئات للشعر الجاهلى [(٢)] :

شعر أهل البادية . أشعار من قصدوا ملوك الحيرة وبنى غسان وجالسوهم . أشعار نصارى الحيرة ومملكة بنى غسان . أشعار أهل الحضر وخاصة الحجاز .

وتأتى « الخنساء » مع شعراء الصنف الأول .

* * *

وإذ تحدد عصر الخنساء ، وتحددت بيئتها ، فلن نعيد ما ملأ الكتب والأسفار من وصف لحياة العرب ببادية الجزيرة قبيل الإسلام ، وإنما يعنينا أن نحاول تحرير الفهم الشائع لهذه البيئة فى ذلك العصر ، فلقد فُهم من البداوة والرحلة ، وانتجاع القوم للكلأ حيث كان ، أن قبائل البدو كانت تهيم على وجهها فى نواحى الجزيرة ، منتقلة من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، دون أن تعرف لها مواطن تعيش فيها وتختص بها . ويبيح هذا الفهم الشائع أن يتصور أكثرنا أن القبيلة يمكن أن تعيش فترة فى البحرين ، ويوماً فى تهامة ، وآناً بالحجاز ، وآخر بنجد أو عسير .

---

(١) بلاشير : « تاريخ الأدب العربى » — ص ١٢ من الترجمة العربية ط دمشق .

(٢) ص ٥١ وما يليها ط — دار المعارف ١٩٥٤ .

والواقع أن القبائل لم تكن ترحل هكذا بلا ضابط ولا قيد ، وإنما كان لكل منها مجالها الخاص الذى تقوم فيه حياتها على مدار السنة ، وفى حدود هذا المجال كانت تنتقل ، ولها فيه « المصطاف والمتربع » على ما قال قائلهم . فطيءٌ وكندة مثلا ، كان منزلهما نجداً ، وتغلب وبكر بالجزيرة قرب الفرات ، والأوس والخزرج بيثرب ، وتنوخ فى البحرين ثم الشمال . . . وهكذا على ما نعرف من منازل القبائل العربية قبل الإسلام .

ولم تخل مناطق البدو من قيعان ومياه وأحساء ، وإلا استحالت الحياة فى الوادى الأجرد ، وما ظلت الصحراء مسكن قبائل من قديم ، لم يهجروها ولا استبدلوا بها سواها ، ولما قالوا الذى قالوه عن الربيع والغيث ، والمياه والرياض ، والزهر والندى ، مما يملأ ديوان الشعراء الجاهلى .

وإذن فلم تكن الخنساء ، تعيش هائمة على وجهها ضاربة مع قومها فى مجاهل البادية ، ولا جهلت الموطن الغالى ، والدار ، والمنزل ، والحمى الذى لا يجوز أن يستباح . وإنما كانت تقيم مع العشيرة فى ديارها : « أرض بنى سُلَيم »(١)

وحياة البدو لم تكن — على ما فهم كثير منا — حياة رعى فحسب ، وإنما كان منهم التجار ، وأصحاب الإبل سفن الصحراء ، وكان منهم حُراس القوافل وحماتها الذين يؤجرون لحراستها .

ونستطيع أن نلمح هذا الطابع التجارى ، فيما حفل به معجم العربية من ألفاظ وأساليب ، أصلُ استعمالها فى التجارة . كما نستطيع أن نلمحه كذلك ، فى أسلوب القرآن الكريم حين يتحدث عن هؤلاء القوم أو يتحدث إليهم ، إذ يحفل هذا الأسلوب باستعارات وتشبيهات مستمدة من بيئتهم التى سادتها الروح التجارية ، فى مثل قوله تعالى :

«أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى فما ربحتْ تجارتهم وما كانوا مهتدين»(٢) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٣٦/٣ ط الحسينية بالقاهرة .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة . واقرأ معها آيات : البقرة ١٦ ، ٧٩ ، ١٧٤ ، ٤١ ، ١٧٥ ، ٩٠ — آل عمران ٧٧ ، ١٨٧ ، ١٧٧ — التوبة ١٠ — لقمان ٦ — النساء ٤٣ — نوح ٩٥ — المائدة ١٠٩ .

« رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ وإقام الصلاة وإيتاءِ الزكاةِ ، يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار » . — النور ٣٧

« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية ، يرجون تجارةً لن تبور » . — فاطر ٢٩

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم . تؤمنون باللهِ ورسوله وتجاهدون في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون » . — الصف : ١٠ ، ١١

« وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً ، قلْ ما عند الله خيرٌ من اللهوِ ومن التجارة ، والله خيرُ الرازقين » . — الجمعة ١١

« إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفْه لكم » (١) .

* * *

وسنرى أثر هذه الروح في شعر الخنساء . . .

ثم في موقف ابنها « العباس بن مرداس » وشعره ، فيما أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم — مع المؤلفة قلوبهم — من فيء حنين ، ورفضه أن يستجيب للرسول الكريم ، حين سأل أصحابه أن يعتقوا سبايا هوازن ، وفيهن حواضنُه وخالاته وعماته من الرضاعة ، نساء بني سعد بن بكر ! (٢) .

---

(١) التغابن ١٧ — واقرأ معها آيات : الحديد ١١ ، ١٨ — الزمر ٣٥ .

(٢) السيرة ٤/١٣٦ حلبي — وتاريخ الطبري ٣/١٣٧ .

الفصل الثانى

الخنساء فى عَصْرِهَا

١ — متى ولدت ؟

٢ — عروس البادية

٣ — زواجها

٤ — مصابها فى أخويها

٥ — ثكلها بنيها الأربعة

٦ — وفاتها

الفصل الثانى

الخنساء فى عصرها

١ - متى ولدت تماضر

لم يحدد القدامى عاماً بعينه لمولد «تماضر بنت عمرو السلمية»، وإنما اكتفوا بذكر أخبارها التى تقطع بأنها أدركت الإسلام ومن بنيها من بلغ مبلغ الرجال وشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة حنين ، ومن شارك فى محنة الرّدة .

وكذلك تحرج المستشرق « كرنكوف » من هذا ، فقال :

« ونحن نجد مشقة كبيرة فى التوفيق بين التواريخ ، وتحديد تاريخ مولد الخنساء على وجه التقريب . ولكننا إذا ذكرنا أن ابنها أبا شجرة كان له شأن كبير فى الردة عام ١٣هـ ، وأنه ربما كان فى الثلاثين من عمره إذ ذاك على الأرجح ، فإنه يجوز لنا أن نفترض أن الخنساء كانت بين الأربعين والخمسين ، بل لعلها كانت أسن من ذلك . » (١)

غير أن المستشرق « جبرييلى » حرص على أن يحدد عام ٥٧٥ م أو نحوه تاريخاً لمولد «تماضر» ، وتبعه على ذلك نفر من المحدثين ، أذكر منهم « الأب لويس شيخو » والأستاذ « فؤاد أفرام البستانى » .

ونرى الأولين أسلم منهجاً وأدق تناولا ، إذ ليس لنا أن نقطع بيقين فى تاريخ مولد شاعرة جاهلية ، على ما نعلم من فقر الأدلة المادية التى تعين على شىء من هذا . وما كان للأخبار النقلية التى دُوّنت متأخرةً ، أن تحدد مولد شاعر من الجاهلية ، وهو عادة يولد مغموراً لا يلتفت إليه أحد ، ولا يعنى إنسان بتسجيل زمن ولادته أو تتبع أخباره قبل أن تظهر شاعريته وتسلط عليه

(١) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة : الخنساء. ويلاحظ عليه أنه ذكر عام ١٣ هـ لخبر أبى شجرة فى حروب الردة ، والصحيح أنه عام ١١ هـ كما فى تاريخ الطبرى ٣/ ٢٣٥ ط مصر .

أضواء الشهرة ، وهذا يفسر لنا اختلاف الأقوال فى تاريخ مولد المشهورين من أعلام العرب ، لا قبل عصر التدوين فحسب ، بل بعده كذلك ، إذ تظهر شهرتهم متأخرة ، وليست هناك مُدَوَّنات رسمية تسجل تواريخ ميلادهم.

ولدت « تماضر» إذن ، ولم يسجل أحد تاريخ مولدها ، ولا تنبأ لها عرّاف أو منجم بأن سيكون لها فى مستقبل أيامها شأنٌ يغرى بالتنبه الخاص إلى ظروف نشأتها . وعاشت كما تعيش لذاتها حتى ظهرت موهبتها فى الشعر ، فاحتفل بها قومها دون أن يجدوا حاجة إلى استرجاع أخبار ولادتها ، وتناقل الناس أخبارها وقد مضى على ولادتها أعوام ذات عدد ، ثم لما جاء عصر التدوين ، كانت حياتها فى أخبار الرواة والمؤلفين ، تبدأ فى سن الشباب ، حين خطبها « دريد بن الصمة » . وإنما التفت القوم إليها إذ ذاك ، ووعوا أنباءها ، لأنها كانت حينئذ تقول الشعر ، وللشاعر مكانته فى القبيلة العربية ، وهو منها موضع العناية والاحتفال ، فلا غرابة فى أن يبدأ تاريخ « تماضر » مع ظهور موهبتها الشعرية .

ومن ثم أرانى أوثر نهج الأقدمين ، فلا أتكلف البحث عن يوم مولدها الذى ضاع فى غمار الزمن ، وإنما حسبى أن أقول إنها ولدت حوالى منتصف القرن الأول قبل الإسلام ، فأدركت المبعث ولقيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فى العام الثامن للهجرة [1] وهى فى طلائع شيخوختها ، وإن يكن حزنها على « صخر » وعلى « السادات من مضر » قد هدّ كيانها وجعلها تبدو فى زيارتها للسيدة عائشة أم المؤمنين : « حليقة الرأس تدبّ على عصا » [2].

وأعجب للذين اطمأنوا إلى تحديد عام مولدها على ما فى هذا التحديد من تكلفٍ واعتساف ، مع أنهم يُظهرون الريبة فى مرويات الشعر الجاهلى ، والشعر بطبيعته أقدر على التنقل من جيل إلى جيل ، وإنك لتسأل عامة الناس اليوم عن مولد أحمد شوقى ، فلا يحيرون جواباً ، مع أن أكثرهم يحفظون قدراً — قل أو كثر — من شعره . والقياس مع الفارق .

(١ ، ٢) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة – ٨ / ٣٤ ط الشرفية ١٩٣٥ .

٢ – عروس البادية

أخذ سيد « بنى جشم » وفارسها المظفر طريقه نحو مكة ، يريد أن يبلغها فى إبان الموسم . وقد حفّ به رجال من بنى جشم وفرسانها ، يباهون به قائداً وسيدا ، ويملئون أيامهم ولياليهم ، على طول الطريق – ما بين حنين وأم القرى – بالحديث عن أمجاده الباهرة ، ويترنمون بقصائده الغرّ .

وما كان لعربى أن يسأل : من يكون السيد ؟ إذ ليس فى العرب يومئذ من يجهل « دريد بن الصمة : الفارس الشجاع ، والشاعر الفحل ، والقائد المظفر » .

وفى بادية الحجاز ، أناخ الركب رواحلهم ، وانطلق « دريد » على فرسه فى رياضة قصيرة ، فما أبعد حتى استوقفه مشهد آسر : فتاة شابة ، لافتة الملامح ، خنساء الأنف ، ممشوقة القوام ، « تهنأ بعيراً لها وقد تبذلت ، حتى فرغت منه ، فنضت عنها ثيابها واغتسلت وهى لا تشعر به » [١] .

ومضت لسبيلها لا تلوى على شىء . . .

وبقى هو يُتبعها بصره وقد عرف فيها « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمى » أخت صديقه معاوية ، وقد لقبوها بالخنساء تشبيهاً لها بالظبية لخنس فى الأنف [٢] .

حتى إذا غابت عنه وراء منعطف الوادى ، أغمض عينيه فى غفوة منتشية ، نبهه منها صهيل فرسه ، فراح يتساءل فى شجو : أحالم أنا ؟

---

(١) الأغانى : ١٠/٢٢ ط دار الكتب . وهنأ البعير : طلاه بالهناء أى القطران .

(٢) هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، وهى صفة مستحبة ، أكثر ما تكون فى الظباء وبقر الوحش ، وتماضر هى أشهر من لقبن بالخنساء ، وفى الصحابيات أربع خنساوات ذكرهن ابن حجر فى الإصابة (٨/٣٥٠) وذكر « أبو بشر الآمدى » فى « المؤتلف والمختلف » ثلاث شواعر باسم الخنساء ، منهن « الخنساء بنت أبى سلمى ، أخت زهير » .

لكن بقايا الهناء على الرمال ، أكّدت له يقظته ، فاعتلى فرسه وتركها تقوده حيث شاءت ، وقد طاب له أن يسلم إليها قياده ، هو الذى ما جرّب قط أن يقوده أحد .

وإذ أشرف على صحبه ، انتفض مستردًّا كامل يقظته ، وخطر له فجأة أن رفاقه قد يلمحون عليه بقيةً من أثر انفعاله بالمشهد، ولعلهم سائلوه عما به ، فبم يجيب ؟

أيقول إن راعية بدوية، تعالج ّبالهناء بعيراً لها أجرب ، قد أسرت لبه وأوقفته مكانه لا يريم ؟

واعجبا ! لقد غزا نحو مائة غزاة ما أخفق فى واحدة منها قط [1] وهذا هو يؤخذ على غِرّة ، بمشهد لم يُر َقط مثلُه بساطةً وجفوة .

ولقد لقى الأبطال والصناديد فما عرف الهزيمة قط ، وهذا هو يلقى سلاحه أمام راعية متبذلة ، لم تتأهب للقائه ، بل لم تحس وجوده وهى تعالج بعيرها ، ثم تنضو ثيابها غير متجملة ولا كاسية ، فتبدو فى حريتها الفطرية وانطلاقها على سجيتها ، وعريها البرىء ، أشبه بقطعة من هذه الطبيعة الصريحة السافرة ، الحرة الطليقة .

وعاد يتذكر ملامحها ، لكنه أُعجِل عن ذكرياته حين رأى نفسه وسط أصحابه ، فوثب من فوق فرسه ، ولم يمهلهم ليسألوه عما كان ، بل بادرهم منشداً : [2]

حيُّوا « تماضرَ » واربَعُوا صحبى ... وقِفُوا فإن وقوفكم حسبى
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم ... وأصابه تَبْلٌ من الحبِّ
ما إن رأيتُ ولا سمعت به ... كاليوم هانئَ أينُقٍ جُرْبِ [3]

---

(١) الأغانى : ١٠ / ٣ ط دار الكتب .

(٢) الأغانى : ١٠ / ٢٢ — والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٠١ —. والإصابة لابن حجر ٨ / ٣٤ — والبيان والتبيين ١ / ١٠١ ط التجارية .

(٣) رواية الجاحظ فى البيان والتبيين : * فى الناس طالى أينق جرب *

متبذلا ، تبدو محاسنُهُ   يضع الهناءَ مواضعَ النقب (١)
متحسراً نضح الهناء به   نَضْحَ العبير بريْطَة العُطْبِ
فسَلِيهمُ عنى خناس إذا   عضّ الجميعَ الخطبُ : ما خطبي

هتفوا جميعاً فى حماسة : أما والله لو سألتْنا لعرفنا بم نجيب !

وكان المساء قد دنا على ريثٍ وأناة ، يلطف بنسيمه الرطب ما تخلف من حرّ النهار ، وطاب للقوم السهر .

وطاب لدريد كذلك ، على فرط لهفته . إلى وحدة يخلو فيها إلى تأملاته .

ذلك أنهم ما وجدوا مادة لسمرهم فى ليلتهم تلك ، ألذ وأشهى من إعداد الجواب عن سؤال « خناس » إذا بدا لها أن تسأل عن « دريد » .

إنها لن تسأل عنه فارساً ، فما فى العرب إذ ذاك فارس أشجع منه ولا أيمن نقيبة .

ولن تسأل عنه سيداً ، فما مكانُه من بنى جشم بن بكر بن هوازن ، بالمجهول ولا المغمور .

ولن تسأل عنه شاعراً ، فما يُغفل اسمه إذا عُدّ فحول الشعراء ، وما ينازعه أحدٌ شعراء الفرسان المكان الأول (٢) .

ولكنها سوف تسأل عنه : ما خطبه إذا عضّ الجميعَ الخطبُ ؟

وستقول العرب يومئذ :

ما عرفنا مثلَه أصبرَ على النوائب وأجلد للخطوب ، وإنه لمنذ شبّ عن الطوق موكّلٌ بثارات قومه ، وما كان أكثرها ، وما كان أفدحها ! !

وبعضُ الذى لقى « دريد » من الخطب يهد الجبال ، لكنه لم يُرَ قط إلا جلداً صبوراً ، حتى ليضرب به المثل فى ذاك .

* * *

(١) النقب : القطع المتفرقة من الجرب ، واحدتها نقبة .

(٢) الأغانى ١٠/٣ – وجمهرة اشعار العرب لأبى زيد القرشى (١١٧ ط بولاق ١٣٠٨) . وفحولة الشعراء (٣٥) ويقول – الأصمعى فى كتاب (فحولة الشعراء . ص ٣٠ ، ٤١) :
« ودريد فى بعض شعره ، أشعر من الذبيانى ، وكاد يغلب الذبيانى »

وأسفر الصبح عن « دريد » يهب من مرقده قبل رفاقه الذين أجهدهم طول السمر ، فيأخذ طريقه إلى حى بنى سليم ، ويلتمس هناك عمرو بن الحارث بن الشريد ، أو ابنه« معاوية» الذى كان له صاحباً .

وتلقاه « عمرو » مرحباً ، يسأل : أى ريح طيبة ساقته إلى ديار بنى سليم؟ فأجاب :

— جئت أخطب ابنتك تماضر الخنساء [١]

فقال الأب فى حرارة وحماسة :

— مرحباً بك أبا قرة ، إنك للكريمُ لا يُطعن فى حسبه، والسيد لا يُرَدُّ عن حاجته ، والفحل لا يُقرَعُ أنفُه .

وسكت برهة ، ثم أضاف بصوتِ المحرج ، المعتذر والواثق معاً :

— ولكن لتماضر فى نفسها ماليس لغيرها . وأنا ذاكرك لها ، وهى فاعلة .

ولم يشأ « عمرو» أن يرجئ الأمر إلى غد ، بل استأذن السيد الضيف ، ودخل على ابنته يقول فى غبطة :

—« ياخنساء، أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم : دريد بن الصمة ، يخطبك ، وهو من تعلمين » .

فتلبثت مليًّا ثم أجابت :

— يا أبتِ ، أترانى تاركةً بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحةً شيخَ بنى جشم . هامة اليوم أو غد[٢] ! ؟

فلم يملك أبوها إلا أن يرجع إلى ضيفه ويقول معتذراً :

— يا أبا قرة ، قد امتنعتْ ، ولعلها أن تجيب فيما بعد .

---

(١) الأغانى : ١٠/٢٢ ط الدار . وفى الأمالى (٢/١٦١ ط الدار) أنه خطبها على أخيها معاوية .

والحوار بنصه منقول من (الأغانى) ١٠/٢٢ .

(٢) قصة الخطبة ، وما جرى فيها مروية بتفصيل فى الأغانى (١٠/٢٣ ط الدار) وأكثر مترجمى الخنساء ، يقتصرون على هذه الرواية فى رد الخنساء (راجع ابن قتيبة ٣٠١ ، والإصابة ٨/٦٦) على أن أبا الفرج نقل رواية أخرى تقول إن تماضر بعثت جارية لها فى أثر دريد تخبر حاله ، فحدثتها بما لم يرضها فردته (الأغانى ١٣/١٣٦ — دار)

ولم يكن عمرو يدرى أن «دريداً» سمع جواب الخنساء ، حتى قال ، رداً على الأمل الكاذب الذى تعلل به أبو تماضر : « قد سمعتُ قولكما »

وانصرف ولم يزد . . .

انصرف وهو يرجو أن يقهر فى نفسه رغبته فى تماضر ، وأن يرغم قلبه على الزهد فيها تعففاً وإباء .

وألهته قسوة الموقف ، عن تمثّل أصحابه حين يبلغهم نبأ الرفض الجارح ، لولا أن تناهى إلى سمعه إثرَ منصرفه ، صوتُ تماضر تقول لأبيها لائمة :

أتخطبنى ، هُبلتَ ، على دريد وقد أطردت سيدَ آلِ بدر؟

فهاج غضبه ، وأنشد يجيبها :

وقاكِ الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالى ، ونفسى[1]

فلا تلِدى ولا ينكحْك مثلى إذا ما ليلةٌ طرقتْ بنحسِ

....

وتزعمُ أننى شيخ كبير وهل خبّرتُها أنى ابنُ أمسِ

وقيل لها : ألا تجيبين « دريداً » إذ هجاك ؟ فقالت : لا أجمع عليه أن أردّه وأهجوه[2] .

* * *

ولم تمض إلا أيام معدودات ، حتى كان موضوع « دريد وتماضر » حديث مكة وقصة الموسم .

هوزان فى جانب ، تعتز بسيدها وشاعرها الذى كان أشبه بأسطورة فى

---

(١) الأغانى : ١٠/٢٣ ط الدار . والإصابة : ٨/٦٦ .

(٢) هكذا قال أبو الفرج فى الأغانى (١٠/٢٥) لكنه فى موضع آخر ذكر بيتين لها رداً عليه (١٣/١٣٦ ط بولاق) مع أنه أوردهما فى الموضع الأول ، فى رفض الخطبة لا فى الرد على هجاء دريد . والبيتان هما :

معاذ الله ينكحنى حبركى يقال أبوه من جشم بن بكر

لئن أصبحت فى جشم هديا إذن أصبحت فى دنس وفقر

وفى الإصابة (٨/٣٥٢) أنها أجابت دريداً بأبيات . ولم يذكر ما هى .

فروسيته وشجاعته ، وتنكر أن ترده فتاة من العرب ، كائنة من كانت !

وبنو سليم ، فى جانب آخر ، تتغنى بأمجادها ، وترى « تماضر بنت عمرو » كفئاً لأن ترد أىّ سيد.

إنها من « قبيلة عزيزة الجانب ، فيها شرف كثير [1] » فلم لا تعتز بانتمائها إليها وسيأتى رسول الإسلام فيعتز بتنقله فى الأرحام الطاهرة من السُّلَمِيَّات إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « أنا ابن العواتك من سليم »

وآل الشريد أشهر السلميين ، وعمرو بن الحارث — أبو تماضر — كان من وفود العرب على كسرى ، وإنه ليأتى الموسم آخذاً بيدى ولديه صخر ومعاوية — وكانا أجمل فارسين فى العرب — حتى إذا توسط الجمع قال بأعلى صوته :

« أنا أبو خيرى مضر ، فمن أنكر فليغير »

فلا ينكر عليه أحد . ويستطرد قائلا :

« من أتى بمثلهما أخوين من قبلى ، فله حكمُه » .

فتقر له العرب بذلك .

ومثل تماضر من تباهى بقومها ، وتعتز بآلها اعتزازاً تُمثله قصيدتها الرائعة ، التى قالتها فى سباق بين أبيها وأخيها ، وقد قيل لها : لئن مدحتِ أحدهما هجوتِ الآخر .

ومطلع القصيدة :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الفخر [2]

وانفض الموسم وما فى الجزيرة أشهر من تماضر بنت عمرو بن الحارث .

---

(١) لسليم بعد ذاك سابقة حسنة فى الإسلام ، شهد منهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحرب حنين نحو ألف رجل . وقد ظلت ذات مكانة قروناً عدة ، فيقول ابن خلدون عن جماعة منهما هاجروا إلى أفريقية وحافظوا على نسلهم وصفاتهم : إن لهم شوكة وصولة . (العبر ٢ / ٣٠٨ ط مصر) وانظر أعلام بنى سليم فى (جمهرة أنساب العرب — ٢٤٩ : ٢٥٢) ذخائر .

(٢) الأغانى : ١٣ / ١٣٦ بولاق — الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٠١ زهر الآداب للحصرى ٣ / ٢١١ .

(٣) « أنيس الجلساء » : ٤٣ والقصيدة من مختارات السيد المرتضى فى « أماليه — ص ٦٧ » . وسنتحدث عنها بتفصيل فى الفصل الرابع .

وعادت مع أبيها وأخويها إلى منزلهم فى بنى سليم ، فما استقر بها المقام حتى أدركت — كما لعلها لم تدرك من قبل — أنها قد قررت مصيرها فتاةً ، حين قالت لأبيها : « أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم ؟ »

* * *

إذن فلا خاطب بعد اليوم من غير بنى سليم ، .

وأى الناس ، من غير سليم ، يجرؤ على أن يتقدم لخطبتها بعد الذى لقى سيد بنى جشم وفارس هوازن ؟

وماذا أنكرت من «دريد» إلا أنه من غير بنى العم ؟ أما عبارتها «شيخ بنى جشم : هامة اليوم أو غد» فلعلها لا تعدو الكلمة العابرة تقال دون أن تُقصد ، أو لعله ظاهر العذر فى رد شاعر الفرسان .

ولكن أى بنى العم يكون زوجاً لتماضر الخنساء ؟

أغلب الظن أنها لم تكن تعنى أحداً منهم بذاته ، حين قالت ما قالت ، إذ يبدو من أسلوبها ، ومن ملامح شخصيتها ، ومن حديث أبيها عنها ، أنها كانت « تملك أمر نفسها » وتضبط عواطفها ، بل أكاد أقول إنها كانت ، صارمة الإرادة ، برزة متحررة ، فى تلك البيئة التى قيل عنها إنها استعبدت الأنثى وأنزلتها منزلة الهوان .

وليس بين يدىّ دليلٌ نقلى على أنها أرادت صنفاً من الرجال لا رجلا بعينه ، وإنما هى طمأنينة نفسية يؤيدها إلفى لشخصية تماضر الخنساء ، وإن أعوزها الدليلُ . فلقد خرجت من دراستى لتماضر فى هذه الفترة من حياتها ، وأنا أتمثلها قوية الشخصية ، أشبه بالفارسات (الأمازونات) بطلات الرياضة الخشنة ، ولعل هذا هو مالفت إليها أنظار الفارس ، إذ رأى نفسه أمام نموذج للأنثى يعز وجوده فى بيئته : أنثى متينة البنيان ، رياضية الجسم ، لا أثر فيها لما يغلب على جنسها من طراوة ولين ونعومة وضعف .

وهذا الرد العجيب الذى لقيت به أباها حين ذكر لها « دريداً » ، يجلو

هذه الملامح التى تمثلتُها ، ففيها تالك الجرأة التى ربما أعوزت كثيرات منا فى عصر التحرير ، وفيها العزيمة العنيدة والإرادة المصممة التى هى بالرجال أشبه .

ومن هنا نفهم لماذا لم تتحرج حين نضت عنها ثيابها لتغتسل ، دون أن تتأكد من خلو المكان . ولماذا لم تشعر بشىء من خجل حواء ، وهى تسمع أباها يعرض عليها «دريداً» خاطباً ، بل لم تتردد فى أن تقول رأيها الصريح ، وكأنما كانت ترى فى خجل الأنثى ضعفاً ، وفى استحيائها خوراً لا يليق بشخصيتها الحرة الطليقة . أقول هذا ، رغم الذى قرأته فى بعض أخبارها ، من أنها فى شيخوختها الواهنة ، ذكرت شبابها فاعتزت بما كان لها من أنوثة وضيئة خلبت الفتيان ، وما أراها يومئذ إلا غافية تحلم بالذى كان يعوزها إبان الفتوة من رقة الجنس الذى تنتمى إليه ، ولطفه وأناقته . وقد نسيتْ فى غفوتها تلك مظاهر خشونتها وصلابتها ، وأنكرت ما عرفت من أمرها بالأمس ، وذلك حيث تقول لابنتها «عمرة» فى جلوة عرسها — وكان القوم قد أغروا عمرة بالتحرش بأمها العجوز ، فداست على قدمها — : « أف لك ياحمقاء ، إنى كنت أحسن منك عرساً وأطيب ورساً[١] وأبسط منك عَرْفاً وأرق منك نعلا وأكرم منك بعلا ، وذلك إذ كنتُ فتاة أعجب الفتيان ، لا أذيب الشحم ولا أرعى البهم ، كالمهرة الصنيع ، لا مُضاعة ولا عند مضيع[٢] » .

ويحها !! لقد نسيت موقفها يوم كانت فتاة تهنأ بعيراً لها !

وإذا كان من الدارسين المحدثين من ينكر هذا الخبر لتناقضه مع الذائع المشهور من رؤية « دريد بن الصمة » لها وهى تهنأ بعيرها ، فالأمر فيه عندنا أبسط من أن يستدعى الإنكار أو الاتهام . وأى غرابة فى أن تهذى شيخة عجوز بأحلام مكبوتة طال عليها المدى ؟ بل أى عجب فى أن تكون فطرة حواء قد تيقظت فيها متأخرة ، فتمثلت صباها معطراً بعطر الأنوثة مجلوا بحسنها ورقتها ؟

---

(١) الورس : نبات كالسمسم يصبغ به .

(٢) أنيس الجلساء : ١١ .

٣ — زواجها

رفضت « تماضر » أن تتزوج من سيد بنى جشم ، كما لم تتزوج قبله من سيد آل بدر ، وأعلنت أنها لن ترضى بأحد بديلا عن بنى العم من سليم .

وحين نحاول أن نتتبع موضـــوع زواجها ، يلقانا عنت من تشتُّت المرويات وقصور الأخبار : فالأقدمون — من مؤرخى الأدب — لم يعنوا إلا قليلا بما لا يتعلق من حياتها بأخيها صخر ، والإخباريون منهم ، لم يأتوا بخبر عن أزواجها ، إلا فى سياق الحديث عن أولاد لهم منها ، كان لهم ذكر فى تاريخ الإسلام ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخليفتيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ونعجب للذين قطعوا بيقين — من المحدثين — فى أمور من حياتها الزوجية ، لم يتوفر لها ما يعين على الثقة والاطمئنان . وزادوا فحددوا سنة بعينها لزواجها من فلان أو فلان ، على نحو ما جاء فى (أنيس الجلساء — والخنساء فى مرآة عصرها) .

وقد سبق القول فى عبث هذه المحاولة .

أما عن عدد أزواجها ، وأسمائهم ، وترتيب زواجها بهم ، فلا نملك إلا استخلاص ما يجوز الاطمئنان إليه ، بعد مراجعة المصادر التى تقدم لنا مادة البحث ، ومقابلة ما فيها من مرويات ، والترجيح بينها بالمقرر من قواعد الترجيح

* * *

ومن المحدثين ، من عدّوا لها أزواجاً ثلاثة[١] ، على اختلاف فى ترتيب زواجها بهم :

الرواحى ، وعبد العزى ، ومرداس .

---

(١) الروائع مقدمة ص ٢ ز — أنيس الجلساء : ١٠ ، الخنساء فى مرآة عصرها : ١٢٢ وما بعدها ط بغداد ١٩٦٢ .

واقتصر « كرنكوف » فى دائرة المعارف الإسلامية ، و « بروكلمان » فى تاريخ الأدب العربى ، على اثنين فقط ، مع اختلاف فى ترتيب زواجها بكل منهما .

فى الدائرة أنها تزوجت من عبد العزى ، ثم مرداس .

وعند بروكلمان أنها تزوجت من مرداس ، ثم عبد الله بن عبد العزى[1].

وبالرجوع إلى المصادر الأولى ، لا نجد أى خبر يؤيد وجود زوج ثالث لها :

فليس فى (تاريخ الطبرى ، والاستيعاب ، وجمهرة أنساب العرب ، ونسب قريش) ولا فى (الأغانى ، والشعر والشعراء) إلا أخبار عن زوجين لا ثالث لهما :

أحدهما : عبد العزى ، والد ابنها أبى شجرة .

والآخر : مرداس ، والد العباس وعمرة وإخوتهما .

والذى نطمئن إليه ، هو أن « عبد العزى » — لا ابن عبد العزى — هو الرواحى الذى جاء اسمه فى قصيدة لها ، وعدّه بعض المحدثين زوجاً ثالثاً لها .

وقد تنبه إلى ذلك « كرنكوف » فقال فى الدائرة — بعد أن ساق خبر رفضها الزواج من دريد — ما نصه : « وزوجت بعد ذلك من رجل من قبيلتها سليم ، اسمه عبد العزى ، ويذهب ابن قتيبة إلى أن اسمه رواحة بن عبد العزى ، فأولدها أبا شجرة » .

والذى فى كتاب (جمهرة أنساب العرب) أن عبد العزى والد أبى شجرة ، هو ابن عبد الله بن رواحة بن مليل السلمى[2] .

فالرواحى فيما نطمئن إليه ، هو عبد العزى نفسه .

ومنه جاء الاشتباه ، فذكر باسم عبد العزيز .

ولعل النسب اختلط بالاسم ، فذكر فى (الشعر والشعراء — ط دى جويه ١٩٧) باسم رواحة بن عبد العزى . ولا نستبعد أن يكون تحريفاً للرواحى ابن عبد العزى .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ١ / ١٦٤ من الترجمة العربية — ط دار المعارف .

(٢) طبعة ذخائر العرب ، ص ٢٤٩ .

كما اختلط اسمه باسم أبيه ، فسماه « شيخو ، وبروكلمان ، والبستانى » : عبد الله بن عبد العزى .

وإنما هو : « عبد العزى بن عبد الله بن رواحة » كما فى (جمهرة أنساب العرب) .

ونرجح كذلك ، بعد طول مراجعة للمصادر ، أن الرواحى السلمى ، عبد العزى بن عبد الله ، هو الزوج الأول لعروس البادية ، تماضر بنت عمرو الشريد ، هذه التى تملك من أمر نفسها ، ما ليس لغيرها من النساء .

* * *

ومن ثم تغيب عنا « تماضر » حيناً فلا نكاد نعثر من أخبارها على أثر ينبئنا عن حياتها الزوجية الأولى كيف كانت ، كما لا نعثر فى ديوانها كله — وليس بالصغير ولا المغمور — على بيت واحد يحدث عن مشاعرها زوجةً للرواحى ، أو يشير إلى ما كان من أمر هذه الفتاة الطليقة وهى تواجه لأول مرة قيود الزوجية وتخضع لرجل ، أو ينم عن حقيقة مشاعرها نحو ابن العم الذى رضيت به أو اختارته له ظروفها زوجا .

وما كنا لنستغرب هذا لولا أنها « تماضر الخنساء » الشاعرة ، إذ من العجيب ألا تستثير هذه التجربة الإنسانية ، التى هى أهم وأخطر تجربة فى حياة الأنثى ، المرأة التى فرضت نفسها على المجتمع العربى يومئذ ، كما فرضت نفسها على تاريخ الأدب العربى ، على نحوٍ لم تظفر به شاعرة قبلها ولا بعدها .

وحين أحاول أن أعلل هذا الصمت العجيب ، لا أجد أمامى سوى إحدى اثنتين : فإما أن تكون « الخنساء » قد قالت شعراً فى حياتها الزوجية ، ثم ضُيِّع هذا الشعر كما ضيع كثير مثله ، لسبب أرجو أن أشير إليه عندما أتحدث عن الشاعرة .

وإما أن تكون قد وقفت من تجربتها الأولى موقفا سلبيًّا ، لسبب تفسره لنا شخصيتها التى عرفناها لها وهى فتاة ، أعنى أنها ظلت « تملك أمر نفسها »

فلم تستثرها عاطفة عنيفة تهز مشاعرها وتفتح مغلق قلبها وتذوب على لسانها شدواً أو شجواً !

وإذا صح هذا — ولست أستبعده — فإنه لمما يؤيد الذى اطمأننت إليه آنفاً من أن « تماضر » لم تتزوج عن حب ، ولا عناها من الزوج المختار إلا أن يكون أحد بنى العم من سليم .

وعلى الرغم من ندرة الأنباء عن حياتهما الزوجية وعدم عناية من كتبوا عن «الخنساء» بها ، فنحن نستطيع من الأنباء القليلة التى وصلتنا ، أن نرجح أن « تماضر » تزوجت وهى فى ريعان شبابها ، بدليل أن ولدها من زوجها «الرواحى» رؤى وقد بلغ مبلغ الشباب ، مع خاله «صخر» يقف دونه ، يوم حورة الثانى ،

ونرجح كذلك أن الزواج قد أثمر ثمرته هذه فى عهد مبكر ، وأن حياة الزوجين بعد هذا لم تكن سعيدة موفقة ، بحيث اضطرا إلى الانفصال . . .

ولسنا نعتمد فى القول بانفصالهما على خبر صريح ، فكل ما لدينا أن «تماضر» تزوجت بعد « الرواحى عبد العزى» من ابن عم لها آخر ، وهذا النبأ يحتمل أن يكون « الرواحى » مات عنها تاركاً لها ولدهما عمرا ، أبا شجرة ، لكن هناك نبأ آخر يقول إن « عبد العزى » رؤى فى تسعة عشر فارساً من بنى سليم ، مع معاوية يوم مصرعه .

فهل كان يومئذ زوجاً لتماضر؟ هذا ما نستبعده ، فإن الخنساء منذ مات معاوية ، ومن بعده صخر ، لم تكن فى حال تسمح لها بزواج جديد ، وبنو الشريد فى مناحتهم الفاجعة بموت زين شبابها .

وقد كانت فجيعتها المزدوجة بفقد أخويها ، هى نقطة التحول فى حياتها كما قال كرنكوف فى (دائرة المعارف الإسلامية) بحق .

وتماضر لم تُر منذ مات صخر إلا نائحة نادبة أو باكية معولة ، وقد أقسمت ألا تنزع عنها ثوب الحداد ، فهل يسهل علينا بعد ذلك أن نتصورها عروساً لمرداس فى صدار من شَعَر ؟

ثم إن «عبدالعزى» شوهد حيًّا يوم حورة الأول ، حوالى سنة ٦١٢ م وقد

بعث محمد (ص) قبيل ذاك رسولا ، والخنساء أدركت الإسلام وقد أشرفت على الشيخوخة كما رجحنا من قبل ، فهل يسهل علينا أن نتصورها قد تزوجت مرداساً بعد المبعث ، وولدت له البنين والبنات ؟

لا مجال للقول إذن بأن « عبد العزى» قد مات عنها — كما ذكر كرنكوف وشيخو — وإلا لاقتضى هذا أن تكون تزوجت للمرة الثانية ، بعد المبعث ، وهى فى حدادها التاريخى المشهور ، قد أتلفها الحزن على السادات من مضر . وليس ينقض هذا القول ، ما نقرأ عن وجود «عبدالعزى » — بعد طلاقه للخنساء — مع معاوية يوم مصرعه ، فما كان عُرْف القبيلة ليأذن له فى أن يتخلى عن عشيرته .

بل إن « دريد بن الصمة » نفسه ، لم يمنعه ردّ الخنساء إياه ، من أن يرثى أخاها ، صديقه معاوية ، بقصيدة رائية ، يقول فى آخر ما نقل « أبو الفرج » من أبياتها : (١) .

فعزّ علىّ هلكك يا ابن عمرو ومالى عنك من عزم وصبر

والراجح كذلك ، أنها كانت فى حياتها الزوجية الأولى ، تعانى القلق والضيق وعدم الاستقرار ، وأن «الرواحى » هو الزوج المقامر المتلاف الذى طالما شكته ، ولعله ضاق بها غيرَ مرة فهمّ بالرحيل عنها لولا أن أمسكته إشفاقاً على ولدها ، وقالت له وقد تهيأ للمضى :

« أقم وأنا آتى أخى صخراً فأسأله »(٢) فأقام « عبد العزى » ، وأتت أخاها فشكت إليه حالها وما تلقى من ضيق العيش ، فما كان من «صخر»إلا أن شطر ماله شطرين أعطاها خيرهما .

ورجعت بالمال إلى زوجها ، فما امتلأت به يداه ، حتى هاجت شهوته إلى المقامرة ، فانطلق به حتى أتلفه قبل أن يتم العام دورته .

وعادت تماضر إلى صخر وقد صفرت يدها مما أعطاها من قبل . فشاطرها صخر ماله ، لكن الزوج ما لبث أن قامر به فقُمِر .

وتكررت المأساة ، حتى إذا كانت الرابعة وهَمّ «صخر» بأن يشاطر أخته ما بقى من ماله ، قامت إليه امرأته فعذلته قائلة :

---

(١) الأغانى : ١٣ / ١٣٠ ساسى (٢) « الإصابة : ٨ / ٣٥٢ .

« إن زوجها مقامر ، وهذا مالا يقوم له شيء ، فإن كان لا بد من صلتها فأعطها أخسَّ مالِك ، فإنما هو متلف ، والخيارُ فيه والشرار سيّان » .

فكان جواب صخر :

والله لا أمنحها شرارها وهى حَصَانٌ قد كفتْنى عارَها

ولو هلكتُ مزقتْ خمارها واتخذتْ من شَعَرٍ صدارَها

ثم شطر ماله فأعطى أخته أفضل شطريه ، دون أن يدرى أنه بهذا الذى قال وفعل ، قد أثقل كاهلَ « تماضر » بدينٍ باهظ الأداء ، وفرض عليها أن تمزق خمارها من بعده ، وتتخذ صدراها من شعر . . .

ولم يكن من المحتمل أن تستمر الحال بالزوجين هكذا ، ومن ثم فلا غرابة فى أن ينحسم الموقف بالانفصال ، فتنفصم عروة هذه الحياة الزوجية بعد أن طال بها التعثر والقلق ، وطالت منها الشكوى والرغبة فى الانطلاق . . .

ولنا أن نسأل : : ألم تكن « تماضر » تعرف داء زوجها قبل أن ترضاه زوجاً ؟ إنه غير غريب عنها ، بل هو من صميم العشيرة ، وما كانت عيوبه بحيث تخفى على قومه ، فكيف تزوجته وقد عرفناها ذات رأى وإرادة وشخصية ؟

لعلنا لا نخطئ الظن ، إذا زعمنا أن داء المقامرة لم يستفحل بالزوج إلا بعد أن تزوج ، وربما افتقد فى حياته الزوجيه ما كان ينشده من أنس وسكن ، افتقد فى زوجته لين الجانب ودماثة الطبع ولطف المعاشرة ، فمضى يتسلى بالمقامرة حتى استفحل به الداء وعَصِىَ على العلاج .

وبقى لها من ذلك الزواج الأول ، ولدهما الشاعر : عمرو ، أبو شجرة بن عبد العزى ، الذى ذاع خبره فى حروب الردة ، وروى فيها شعره [١] .

* * *

رجعت « تماضر » إلى بيت أبيها وما تزال فتية صالحة للزواج ، ولن نستغرب أن يكون زوجها الثانى من بنى العم أيضاً : « مرداس بن أبى عامر

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٣٥ ط الحسينية بالقاهرة .

السلمى » ، وكان يلقب بالفيض[١] لسخائه

ولم يكن حظنا من أنباء حياتها الزوجية الثانية ، بأوفى من الأولى ، ذلك أن ظهور « صخر » على مسرح حياتها فى المحنة التى أشرنا إليها ، وارى خلفه كلّ من عداه ، واستأثر دون الزوج والأبناء ، بالحظ الأوفى من عواطف «تماضر » وشعر « الخنساء » واهتمام المؤرخين والمؤلفين .

ولا نعرف من أخبار زوجيتها ، إلا أنها ولدت لمرداس أربعة بنين : هم العباس وجزء ومعاوية وهبيرة[٢] . وبنتا هى عمرة بنت مرداس .

على أن «مرداساً» ظفر من زوجته بما لم يظفر به أحدقط غير أخويها ؛ لقد جادت عليه بمرثية[٣] ، وهى التى ضنت على بنيها يوم استشهدوا جميعاً ، ببيت واحد من الشعر

ورثاؤها زوجها ، أمر يدعو إلى العجب حقا ، إذا ذكرنا استئثار صخر ، ثم معاوية ، بديوان الخنساء .

والقصيدة لا تكشف فى صراحة عن عاطفة زوجة نحو زوجها ، ولا تلتفت إلى ذكريات عهد لهما مضى ، وإنما هى تأبين للفقيد وإشادة بذكر شمائله .

لقد كان «مرداس» فى رأيها خير الناس ، لو وُزن به ماجدٌ لاعتدل به : سعة حلم ، وبُعدَ همة وشجاعةً ومروءةً[٣] .

والقصيدة من أجمل مراثيها وأقواها ، وأغلب الظن أن «مرادساً» مات قبل أن تروع «تماضر» بفقدأخويها ومعاوية ، وإلا لما ظفر منها بكلمة واحدة ، فقد نذرت ألا تحزن على أحد من بعد صخر ، وألا ترثى ميتاً بعده .

وأحسب لو أن العمر امتد به حتى فجعت فى صخر ، لما طاوعها لسانها أن تقول عن «مرداس» إنه خير الناس ، ولما رأت الدنيا حولها مظلمة والبدر كاسفاً ، فما عهدنا الخنساء بعد أن مات صخر ، تجد بعده بدراً لم ينكسف ، ونوراً لم ينطفىء .

---

(١) قالت عمرة بنت مرداس ترثيه :

والفيض فينا شهاب يستضاء به ... إنا كذلك فينا يوجد الشهب

« أنيس الجلساء » ص ١١ .

(٢) هكذا سماهم ابن حزم فى (جمهرة أنساب العرب : ٢٥١ ذخائر) وعدهم « ابن عبد البر » فى (الاستيعاب) أربعة كذلك ، ولم يذكر أسماءهم . .

(٣) الديوان : ٧٧ . وستأتى هذه المرثية ، فى المختار من شعرها

٤ ـ مصاب الخنساء فى أخويها

ونمضى لنرى « تماضر » قد ترملت ، قبل مصرع أخيها معاوية على الأرجح ، وقد شب ولدها البكر « أبو شجرة : عمرو بن عبد العزى الرواحى » أما بنو مرادس فما يزالون ـ عدا العباس ـ صغاراً .

وما من ريب فى أنها وجدت من أخويها نعم العون ، فى محنة ترملها ، وأن صخراً ـ بصفة خاصة ـ ما كان ليرضى أن تتعرض لمذلة الحاجة ، أو تنوء تحت قسوة الأيام .

مامن ريب فى أنه وقف إلى جانبها ، يرعاها ويحمل عنها عبء يتاماها الصغار ، حتى كانت الكارثة الفادحة :

لقد هلك صخر : زين العشيرة ، وأولهم حلماً وجوداً وشجاعة وجمالا[1] ومن قبله هلك «معاوية» وكانا على ما رَوَى أبو عبيدة أجمل رجلين فى العرب[2]

ولنا أن نتصور محنة «تماضر» وهى تفقد أخويها ، واحداً بعد الآخر . . .

* * *

وكان لهلاكهما قصة مثيرة ، رواها صاحب الأغانى . وقد بدأت فى عكاظ ، إذ وافى معاوية بن عمرو الموسم ، فبينما هو يسير مزهواً بجماله وفروسيته ، لقى «أسماء المرية» فأعجبه جمالها ، ودعاها إلى نفسه وهو يحسبها بغياً[3] . فامتنعت عليه قائلة : «أما علمتَ أنى عند سيد العرب : هاشم بن حرملة الغطفانى»

قال وقد أثارته بردها : أما والله لأقارعَنَّه عنك .

فهزت كتفها قائلة فى تَحَدٍّ : شأنك وشأنه .

---

(١) « الإصابة » ٨/٢٥٢ .

(٢) الأغانى ١٣/١٣٠ ساسى .

(٣) المصدر نفسه ـ ص ١٣٤

ومضت إلى «هاشم» فحدثته بما كان ، فانطلق مغضباً حتى أتى معاوية يسأله عن الخبر ، فقال معاوية :

«لوددتُ والله أنى قد سمعت بظعائنَ يندبْنَكَ » .

وأجاب « هاشم » وهو يشير إلى جُمَّة [1] «معاوية» التى كانت تلمع أبداً كأنها تنطف دهناً وإن لم تدهن :

« والله لوددت أنى قد بريت الرطبة » — يعنى جُمَّته

فما انفض الموسم حتى تهيأ معاوية لغزو بنى مرة ، قوم هاشم ، فنهاه أخوه صخر ، لكنه أبى إلا أن يمضى لما يريد .

وانطلق فى فرسان من بنى سليم ، حتى إذا دنا من ديار بنى مرة ، دَوَّمت عليه طيرٌ وسنح ظبى ، فتطير منهما أصحابه، وما زالوا به حتى رجع . وبلغ ذلك هاشم بن حرملة فقال: ما منعه من الإقدام إلا الجبن . واستثارت الكلمة معاوية لما بلغته فخرج فى العام التالى، مصرًّا على الغزو ، لكن أصحابه تطيروا من ظبى سانح ، فرجعوا وتخلف هو فى تسعة عشر فارساً منهم « عبد العزى الرواحى السلمى » شيخاً ، لا يريدون قتالا .

وورد «معاوية» وأصحابه ماءً هناك يسقون ، فعرفتهم امرأة من جهينة — أحلاف بنى سهم بن مرة — فانسلت حتى أتت «هاشم بن حرملة» فأخبرته أن « معاوية » ، فى تسعة عشر رجلا من صحبه ، غيرُ بعيد !

وقال هاشم مرتابا : أمعاوية فى هذا العدد الضئيل قريباً من بنى مرة ؟ شَبَّهتِ وأبطلتِ .

فوصفتهم له واحداً واحداً ، فخرج هاشم، مع أخيه دريد، وجمعٍ من قومه ، وأصابوا من «معاوية» مقتلا .

وشدّ فرسان بنى سليم على عدوهم، فقتلوا بمعاوية مالكَ بن الحارث سيد بنى فزارة ، وعادوا إلى«صخر» وهم يظنون أنَّهُم مُرْضوه بما أدركوا من ثأر عاجل .

---

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

لكن صخراً لم يرض ، وإنما انطلق حتى أتى بنى مرة يسألهم : من قتل معاوية ؟.
فسكتوا طويلا ، ثم قال هاشم :

« هلم أبا حسان إلى من يخبرك ، إذا أصبتنى أو أصبتَ دريداً ، أخى ، فقد أصبت ثأرك »

قال صخر : فهل كفنتموه ؟

أجابوا : نعم ، فى بردين . قال : فأرونى قبره .

فمضوا به حتى إذا رأى القبر جزع ، غير أنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال :

« كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعى . فو الله ما بِتُّ منذ عقلت إلا واتراً أو موتوراً ، طالباً أو مطلوباً ، حتى قُتِل معاوية ، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده » .

وسأل عن الشماء ، فرس معاوية ، فجاءوه بها .

ثم انصرف وقد توعدهم أن يأتيهم فى العام القابل .

وأنجز وعيده . غزاهم على « الشماء » فنال منهم ، وقتل عدداً فيهم دريد ، أخو هاشم .

وأدرك ثأره ، وإن فاته أن يشتفى من « هاشم » الذى نجا .

وخرجت بنو غطفان فى أثر صخر تطلبه ، فوقف دونه ابنُ أخته : أبو شجرة بن الرواحى[١] ، حتى فات طالبيه . . وعاد إلى ديار بنى سليم وهو يقول :

وذى إخوة قطّعْتُ أقراق بينهم   كما تركونى واحداً لاأخا ليا

ثم شاء القدر لهذا الذى لم يَبِتْ منذ عقل إلا واتراً أو موتوراً ، أن يرقد طريح الفراش حتى يملّه أهلُه .

خرج « يوم ذى أثل »[٢] قائداً لبنى خفاف ، فأصابوا فى بنى أسد بن خزيمة غنائم وسبياً ، وأصابت صخراً يومئذ طعنةٌ فى جنبه فرقد جريحاً . . .

---

(١) العقد الفريد : ٦/٢٩ – وفى الأغانى أنه العباس بن مرداس .

(٢) « أيام العرب » . ص ٣٩٩ ط الحلبى ١٩٤٢ ، وانظر خزانة البغدادى ٣٩٣ .

وليتها كانت القاضية ، فهكذا يموت الأبطال وقد كان «صخراً» بطلا . . لكنه لم يمت ، بل عاش ليجرع العذاب والهوان .

عاش عاماً وبعض عام ، لا يموت ولا يحيا ، أو كما قالت امرأته وقد سألها أحد العُوَّاد : كيف أصبح صخر الغداةَ .

أجابت : بشرِّ حال ، لا حيٌّ فيرجى ، ولا ميت فيُنعَى. ولقد لقينا منه الأمَرَّين ![1].

وسمعها «صخر» فكان ذلك أشد عليه من ألم الجرح ومحنة العجز . .

إذن فقد ثقل على امرأته التى أحبها جهد الحب !

وانتظر حتى دخلت عليه فسألها وهو يرجو أن يكون سمعه قد خانه :

كيف قلت للعائد ؟

أجابت وقد أفلت منها زمام التصبر والمداراة : أو لستُ قد صدقتُ ؟..

وهمَّ صخر بالنهوض ، لكن ضعفه أمسكه إلى الفراش ضائعَ الحيلة مهيضَ الجناح .

وسكت على مضض وهوان . . .

حتى إذا كان الغد ، مرَّ عائد آخر ، وأم صخرٍ على باب الخباء ، فسألها عن حاله : كيف أصبح الغداةَ وكيف بات البارحة ؟

أجابت : بأحسن حال . ما كان منذ اشتكى خيراً منه اليوم ، ولا نزال بخير ما رأينا سواده فينا .

فلمست كلمتها قلبَ الفارس العاجز ، وأذابت حرارةُ حبها ذلك الركام

---

(١) هذه رواية أبى عبيدة ، عن أبى بلال بن سهم بن عباس بن مرداس السلمى . ذكرها أبو الفرج فى الأغانى . ومثلها فى «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ، وفى شرح مقامات الحريرى للشريشى .

وفى رواية أخرى بالأغانى (١٣/ ١٣٦ بولاق) أن التى قالت هذه المقالة ، بديلة الأسدية ، وكان صخر سباها حين اكتسح بنى أسد ، فاتخذها لنفسه . وحين سمع كلمتها للعائد قال : =

الثلجى الذى كان يكفنُه منذ سمع قالة « سلمى » وأنشأ يقول :

أرى أمّ صخر لا تمل عيادتى ... وملّت سليمى مضجعى ومكانى (١)
لعمرى لقد نبهتِ من كان نائماً ... وأسمعت من كانت له أذنان
وأى امرئ ساوى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاش إلا فى شقا وهوان

* * *

« لا نزال بخير ما رأينا سواده فينا » .
هكذا قالت أم صخر .
أفكان ذلك أيضاً رأىَ أخته تماضر ؟
أم لعلها آثرت أن تذوق كأس الفراق، على أن تشهده فى محنته تلك ؟
ذلك أننا نراها – فى مشهد آخر – قد أعياها أن تحتمل مرآه الفاجع ، ففى الخبر أنه « لما طال البلاء على صخر ، وقد نتأت قطعة مثل الكبد فى جنبه فى موضع الطعنة ، قالوا له : لو قطعتها لرجوت أن تبرأ »

قال مستسلماً : شأنكم . فأشفق عليه بعضهم ، لكنه أبى إلا أن يفعلوا قائلاً :

– الموت أهون على مما أنا فيه

فأحموا له شفرة ثم قطعوها . وسألت تماضر : كيف كان صبره ؟ » (٢)

إذن فالمسكينة لم تطق أن تشهد العملية ، بل انتظرت بعيداً على أحرّ من الجمر ، حتى إذا انصرفوا من عنده بعد أن قطعوا ما قطعوا ، سألت فى لهفة وتوجع : كيف كان صبره ؟ وسمع صخر سؤالها فأجاب :

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... على الناس ، كلّ المخطئين تصيب

= ألا تلكم عرسى بديلة أوحشت ... فراق وملت مضجعى ومكانى

(١) هذه رواية الأغانى ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار (٤/١١٩) .
ورواه الحصرى فى « زهر الآداب » ٤/٦٩ : * ألا أم عمرو لا تمل عيادتى * مستشهداً به على أن الخنساء كانت تكنى أم عمرو .

(٢) الأغانى : ١٣/١٣١ ساسى

فإن تسأليني : هل صبرتُ ؟ فإنني ... صبور على ريب الزمان صليب
كأني وقد أدنوا إليّ شِفارَهم ... من الصبر دامي الصفحتين ركوب
أجارتنا لستُ الغداةَ بظاعن ... ولكنْ مقيمٌ ما أقام عسيب(١)

على أن القصة لا تمضى هكذا دون أن تضيف إليها الروايات ظلالا أسطورية ، تشهد بما كان لصخر من شهرة ذائعة وجمال فائق . فلقد عقب «أبو الفرج الأصفهانى» على الرواية التى نقلناها فى وفاة صخر بقوله : « قاله أبو عبيدة . وقال غيره : إن صخرا ورد المدينة مع صاحب له من بنى كنانة ، وكانا أجمل رجلين فى العرب ، فشربا عند يهودى خمار بالمدينة ، فحسدهما لما رأى من جمالهما وهيئتهما وقال : إنى لأحسد العرب أن يكون فيهم مثل هذين . فسقاهما شربة جَوِيا منها . فمر بصخر طبيبٌ بعد ما طال مرضه ، فأراه ما به فقال : أشق عنك فتفيق . ثم عمد إلى شفرة فجعل يحميها ثم يشق بها عنه فلم يلبث أن مات » .

ويجب ألا تروعنا هذه المرويات ، فما هى إلا مظهر تعبير عما كان لصخر من شخصية حيك حولها ما يشبه الأساطير .

* * *

مات صخر . . . (٢)

وسجل التاريخ الأدبى للعرب مولدَ شاعرة قُدر لها أن تشغل المكان الأول بين شواعر العربية .

وأقول مولد شاعرة ، لأن الرواة لم يحتفلوا بالخنساء إلا راثية ، على ما سوف نفصله إن شاء الله فى حديثنا عن الشاعرة .

ومنذ مات صخر ، لم تنتفع «تماضر» بحياتها ، وإن عاشت بعده نحو نصف قرن تبكيه وترثيه ، وأبت أن تنزع ثوب الحداد عليه طوال هاتيك السنين .

---

(١) عسيب : جبل بأرض بنى سليم . والأبيات مروية فى « الأغانى » (١٣ بولاق) ، وفى « الشعر والشعراء » (١٩٩) — وانظر مجمع الأمثال للميدانى ٢/٧٨ .

(٢) أو قتل بطعنة ربيعة بن ثعلبة الأسدى ، كما فى (جمهرة أنساب العرب) — ١٨٥ .

وقد ذاقت قبل فجيعتها المزدوجة بفقد أخويها ، طعم الترمل ، وأغلب الظن أنها ذاقت قبلهما جرعة اليتم ، ثم ذاقت بعدهما محنة الثكل ، لكن مصابها فى « صخر » بخاصة ، ألهاها عن كل قديم وحديث .

وانتشر نور الإسلام ، وسعدت « تماضر » برؤية نبيه صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءت مع قومها بنى سليم فبايعته فى السنة الثامنة للهجرة ، ورق لها — عليه الصلاة والسلام — فى حزنها المتلف ، واستنشدها شعرها فى صخر ، فراحت تنشده وهو يصغى إليها بقلبه الكبير ويستزيدها قائلا : هيه ياخناس! ويومئ بيده . [1] وأبت عليه رحمته وإنسانيته أن يلومها أو يزجرها ، أن لم تتسل بالإسلام عمن فقدت .

وكذلك استقبلتها السيدة « عائشة أم المؤمنين » فقالت لها فى رفق وقد أحزنها أن تراها حليقة الرأس مرتدية صداراً من شعر تدب من الكبر على عصاً :

— أخناس !

أجابت الشيخة الحزينة وقد هزها الدعاء الرقيق : لبيك يا أماه .

قالت تستثير فيها إرادة التصبر والتجمل بالعزاء :

— أتلبسين الصدار وقد نهى الإسلام عنه ؟ قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبستُ هذا [2] .

فخفضت رأسها وهى تجيب فى أسى وضعف : لم أعلم بنهيه

فكفت السيدة عن ملامتها وأقبلت عليها تسألها مترفقة :

— ما الذى بلغ بك ما أرى ؟

أجابت وهى تشهق بدمعها : موت أخى صخر .

ثم انثنت تقص عليها ما كان من كريم صنائعه وجميل بره ، وتحدثها عن قصة هذا « الصدار » الذى لبسته عليه منذ مات ، مصداقاً لقوله فيها يوم لامته زوجه « سلمى » على مشاطرته إياها ماله مرة بعد مرة :

---

(١) الإصابة : ٨ / ٣٤ . وانظر معه (الاستيعاب : ٤ / ١٨٢٧) ط نهضة مصر .

(٢) « الشعر والشعراء » : ٣٠١ .

ولو هلكتُ مزقتْ خمارها   واتخذتْ من شعر صدارها

ولبست الحزينةُ صدارها ، ثم رفعت رأسها إلى أم المؤمنين قائلة : « والله لا أخلف ظنه ، ولا أكذب قوله ما حييت ! »

فإن يكن الإسلام قد نهى عن مثل هذا ، فرحمة الله واسعة !

وبلغ من سوء ما وصل إليه حالها مع الحزن ، أن ضج القوم منها وشكوها إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ، وكانت قد خرجت إلى المدينة حاجّةً ، وراحت تطوف فى صدارها الفاجع وزيها الجاهلى مقرحةَ الجفنين حليقة الشعر لا تكف عن نواح وبكاء . فأراد أمير المؤمنين أن يأخذها بالصبر ويردها عما هى فيه من حزن متلف ، فقال يزجرها ويعظها :

« إن الذى تصنعين ليس من الإسلام . وإن الذين تبكين هلكوا فى الجاهلية وهم حَشْو جهنم . »

قالت : ذلك أدعى لحزنى عليهم .

ثم أنشدته بعض شعرها فى أخويها فتأثر وقال — فيما رووا : « دعوها ، فإنها لا تزال حزينة أبداً ! »

٥ ـ ثكل الخنساء بنيها الأربعة

ثم شاء الله أن يذيقها محنة الثكل فى بنيها الأربعة ، ليبلو حزنها على صخر ...
فى بنيها الأربعة ؟
أو ما يزال لها بنون ؟

لقد نسيناهم فى غمرة الأحداث التى ألمت بصخر . أنستنا إياهم والدتهم « تماضر » نفسها فما أشعرتنا لحظةً أنهم فى دنياهم ، حتى ليكاد يشق على مثلى أن تتصورها قد حملت فعلا ، وأرضعت ، وعرفت الأمومة .

ولقد كانوا رجالاً جديرين بأن يملئوا حياة أى أم ، إلا تلكم الخنساء !

وكانت لكل منهم حياته وهمومه ومشاغله ، ولكن الخنساء ـ كما تصورها لنا الأخبار ـ تقف فى عزلة عنهم جميعاً ، وتبدو كأنها لا تحس لهم وجوداً ، أو تضفى على أحدهم حقَّه من مشاعر الأمومة .

ابتُلى ولدُها البكر « أبو شجرة بن عبد العزى » بالمحنة التى ما بعدها محنة : ارتد عن الإسلام ، وشارك فى قتال جيش خالد بن الوليد الذى سيره أبو بكر ـ رضه ـ لحرب المرتدين . وروَّى رمحه من دم المجاهدين فى حروب الردة ، فذلك حيث يقول : من قصيدة طويلة ، نقلها « الطبرى » (١) :

ورويت رمحى من كتيبة خالد ... وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وبلغ الخنساء النبأ والشعرُ ، فما رأيناها تهتز فى بدنها شعرة واحدة ، ولا سمعنا عنها خبراً يحدث أنها اكترثت للأمر ؛ أو عناها أن تسمع أن ولدها أباشجرة ، أتى أمير المؤمنين عمر يستحمله ـ بعد أن تاب ـ فوثب عليه بالدرة ، وهو يذكر قوله : * ورويت رمحى من كتيبة خالد *
فولى هارباً (٢).

وكانت لها ابنتها « عمرة بنت مرداس » عروساً رقيقة شاعرة . .

ثم كان لها بنوها : العباس ، وجزء ـ أو زيد ـ ومعاوية وهبيرة .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٣٥ ـ وانظر الإصابة ٨ / ٤٥ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٣٦ ـ وفيه شعر لأبى شجرة ، قاله فى الحادثة ، وهو منطلق إلى أرض بنى سليم .

وقد غابوا عن حياتها فلم نرهم معها إلا ليلة خرجوا مع جيش المسلمين لفتح فارس ، فباتت ليلتها تلك توصيهم بالصبر وتغريهم بمجد الاستشهاد .

قالت : « يا بنى إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، وإنكم لبنو أب واحد وأم واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت أخوالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما أعد الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . . . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنى والكرامة فى دار الخلد والمقامة »[1] .

وتمضى الرواية فتقول إنهم أصبحوا فباكروا مراكزهم فى المعركة ، وتقدموا واحداً بعد واحد ، ينشدون أراجيز[2] يذكرون فيها وصية أمهم العجوز . قال الأول :

يا إخوتى إن العجوز الناصحه قد نصحتنا إذ دعتنا البارحهْ
مقالة ذات بيانٍ واضحه وإنما تلقون عند الصابحهْ
مِن آل ساسان كلاباً نابحه

وأنشد الثانى :

إن العجوز ذاتُ حزم وجلدْ وقد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبِرّاً بالولد فباكروا الحرب حُماة فى العدد

وقال الثالث :

والله لا نعصى العجوز حرفا نصحاً وبرّاً صادقاً ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا حتى تلفوا آل كسرى لفّا

وأنشد الرابع :

لستُ لخنساءَ ولا للأخرم ولا لعمرو ذى السناء الأقدم

---

(١) هكذا رويت الخطبة فى (الاستيعاب : ١٨٢٨/٤ -- وخزانة الأدب : ٣٩٥/١ -- وشرح مقامات الحريرى للشريشى : ٢٣٦ ط ١٣٠٠ هـ . والخبر مروى فى الإصابة ٣٥٣/٨) بإيجاز .

(٢) اقتصرنا هنا على ما اتفقت الرواية فيه بالإصابة والاستيعاب ، وأمسكنا عن ذكر أبيات جاءت فى الثانى ، دون الأول .

إن لم أرَه في الجيش جيش الأعجمي ماض على الهول خِضَمٍّ خضرم

وما زالوا حتى استشهدوا عن آخرهم .

والرواة مجمعون على أن عددهم أربعة ، وإن لم يحددوا بالضبط أسماءهم . فابن قتيبة يذكر أنها ولدت لمرداس من البنين : زيداً ومعاوية وعمراً[1] ، وبنتاً واحدة ، فهل كان رابعَهم العباسُ بن مرداس ، أخوهم الشقيق حيث تقول الخنساء في وصيتها لهم : « إنكم لبنو اب واحد وأم واحدة ». فالأربعة إذن أشقاء؟ وقد نجد مخلصاً في اتهام هذه الوصية بالوضع ، لكنا لا نملك أن نقطع هنا بيقين ، وإذ ذاك لا يبقى أمامنا إلا أن نفسر اضطراب أخبار بني الخنساء — حتى في أسمائهم — بأن الرواة إنما اهتموا بصخر ، البطل الأول في قصة الخنساء ، فلم يعنهم أن يحرروا الأنباء عمن عداه .

* * *

تم الفتح ، وآب الجيش الظافر يحمل للخنساء مع هتاف النصر خبرَ استشهاد بنيها الأربعة ، فما كان منها إلا أن قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة » [2].

ثم لم تزد . .

ولم يذكر لها الرواة بيتا واحداً ترثي به فلذات كبدها ! !

بل لم يذكروا شيئاً عن حزن لها عليهم ، أو حديث منها عنهم . . .

وإنه لموقف عجيب من أم ثكلى . . .

وهو موقف أعجب ، من شاعرة تجيد الرثاء . . .

أهو الإسلام قد منحها الصبر وأغراها بالعزاء ؟

لكن كيف وقد أبت أن تتعزى عن صخر ومعاوية ، على كثرة ما حاول المحاولون أن يردوها إلى جميل التأسي والصبر على قضاء الله ، فلم تستجب لواعظ

---

(١) « الشعر والشعراء » ١/٣٠١ . والذي في (جمهرة أنساب العرب) أن أسماء أبنائها من مرداس : العباس ، وجزء ، ومعاوية ، وهبيرة ! !

(٢) « الإصابة » ٨/٣٥٣ . ومثله في (الاستيعاب ج ٤).

ناصح ، ولا زاجر لائم ، بل قالت للسيدة عائشة — رضى الله عنها — حين ذكرت لها نهى الإسلام عن لبس الشعار الجاهلى :

« والله لا أخلف ظن صخر ، ولا أكذب قوله ما حييت » وبقيتْ عند تصميمها وإصرارها ، لا تنزع ثوب الحداد .

أهو مجد الاستشهاد قد هوّن من مصابها ، بالقياس إلى مصرع أخويها ؟ لقد يقال هذا ، فيؤيده المروى عنها إذ سألها « عمر » — رضه — يوماً :

— ما أقرح مآقى عينيك ؟ أجابت :

— بكائى على السادات من مضر . قال :

— يا خنساء ، إنهم حشو النار !

فردت عليه قائلة :

— ذاك أطول بعويلى عليهم . إنى كنت أبكى لهم من الثأر ، وأنا اليوم أبكى لهم من النار .

كما يؤيده قولها عندما بلغها استشهاد بنيها الأربعة فى وقعة القادسية : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم » .

لكن مجد الاستشهاد فى سبيل الله ، لم يحل دون البكاء على من استشهدوا من الصحابة السابقين[١] ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع نساء المسلمين يبكين قتلى أُحُد ، فيقول فى حزن وتفجع : وحمزة لا بواكى له ! ! فلم تبق مسلمة هنالك إلا بكت على سيد الشهداء[٢] .

ولنفرض أن الخنساء ، وجدت فى مجد الاستشهاد عزاءها ، فهلا هاج مصرعُ الأبناء الأربعة شاعريتها ، وأطلق لسانها بنشيد الشهادة ، وحلاوة الإيمان ! !

فهل يقال إن بكاءها على أخويها قد استنفد الدمع من مآقيها ، وأن رثاءها لهما استهلك مشاعرها ؟

---

(١) فى السيرة لابن هشام ، الجزء الثالث : ثلاث قصائد لكعب بن مالك ، وثلاث لحسان ، وسابعة لعبد الله بن رواحة ، فى بكاء حمزة بن عبد المطلب . وفى آخر الجزء الرابع ثلاث قصائد لحسان ، يبكى الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) السيرة : ٣١٧/٤ ، ٣٢٢ .

لو قلناه لأيدنا من ديوان الخنساء نفسها قدر كبير من شعرها فى صخر ومعاوية :

ففى معاوية تقول :

فآليت آسى على هالك وأسأل باكيةً ما لها ؟

وفى صخر تقول :

حلفتُ بالبيت وزواره إذ يُعملون العيس نحو ابجمارْ

لا أجزع الدهرَ على هالك بعدكَ ما حنّت هوادى العشار

لكن ثكل أمٍّ شاعرة ، أبناء أربعة ، فى يوم واحد ، جدير بأن يدرّ عصىّ الدمع ، ويبث فى الأشلاء الممزقة ، جديداً من مشاعر الحزن وثائرات الأشجان .

الموقف جد عجيب ، ولا تفسير له عندى إلا إحدى اثنتين ، فإما أن يكون حزنها المشهور على «صخر» قد جعل الرواة والسمار والقصّاص ، لا يكترثون — كما قلت من قبل — لغير هذه الأخوة الفذة ، بل لعلهم أضافوا إليها ما أضافوا حتى جعلوا منها أشبه بقصة أسطورية .

وإما أن يكون موقف الخنساء من بنيها ، مصدره انحراف فى طبيعة تماضر ، جعل عاطفة الأخوة فيها تطغى على عاطفة الأمومة التى هى جوهر الأنوثة ، والعنصر الأصيل فى مقومات الفطرة لحواء :

إن نفسى بعد صخر بالردى معترفه

وبها من صخر شيء ليس يُحكى بالصفه !

وحين أذكر هذا ، يلفتنى أن عواطف الأمومة عند «الخنساء» باهتة لا تكاد تُلمح ، وهذا ديوانها بين يدى أحاول أن أعثر فيه على أثر من صورة الأم فى تجربتها العظمى ، ولا أثر . كما حاولت عبثاً أن أجد فيه صدى — أى صدى ! — للحزن الأكبر ، الذى تذوقه الثكلى .

وليس فى كل مراجعنا ومصادرنا ، كلمة لها عن أبى شجرة فى ردته ، ولا عن ولدها العباس بن مرداس ، فى موقفه من الرسول ، عند ما أعطاه دون ما أعطى بعض المؤلفة قلوبهم ، أو حين أبى أن يستجيب للنبى ، لما سأل أصحابه فى ردّ سبايا هوازن (١) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ١٣٧ . السيرة لابن هشام : جـ ٤

وفى ديوانها خمسة أبيات فى ابن صخر ، تُحدِّث عن حبها له وفخرها به[١] ، وفى ديوانها كذلك ، مرثية فى صخر ، استهلتها بالجزع على بنت صخر فى مناحة أبيها :

أبنتُ « صخر » تلكم الباكيه لا باكى الليلة إلا هيه [٢]

ولكن أين بنو الخنساء ؟ أين فلذات كبدها ؟ أما هاجها مرأى بنتها « عمرة بنت مرداس » فى مناحة الأب ؟ أما روعها مشهد يتاماها حين فقدوا أباهم ؟ أما هزتها محنة ولدها البكر حين ابتلاه الله بلعنة الردة ؟ أما ساءها سخط ولدها العباس ، لعطاء قليل ، وقوله فى ذلك شعراً ، بلغ الرسول فقال :

« اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه » فزادوه حتى رضى ؟

أما كان لها رأى فى موقفه من سبايا هوازن ، حين سأل الرسول أصحابه أن يعتقوهن ، فأبى العباس ؟

أسئلة تطول ، والخنساء فى أخبارها وفى ديوانها ، صامتة لا ترد جواباً

هو الشذوذ إذن فى طبيعة الخنساء يفسر موقفها من ابنتها فى جلوة عرسها[٣] وشبيه به موقفها من بنيها الأربعة حين استشهدوا ، على تفاوت ما بين العرس والموت .

ومهما نتهم خبر العرس ، فلا ريب فى صدق دلالته على ما أحس القوم من انحراف الخنساء عن فطرة الأمومة ، إلى حدّ جعلهم يغرون ابنتها العروس بالتحرش بها ، كى يستثيروا ما يعرفون من غيظها [٤] !

ولم أنس أنها قالت ما قالت – لابنتها – ، وقد علت بها السن وأنهكتها الشيخوخة ، لكنى أسأل « علم النفس » عن هذا الهذيان ، فلا أراه يهدره بحال ما ، بل يرصده فى عناية ، ليستبين ما وراءه من مشاعر مطوية وخواطر مكبوتة ، ألجمتها الإرادة حيناً ، وضبطها العقل أحياناً ، حتى إذا آنست فى الإرادة ضعف الشيخوخة ، وفى العقل غفلة الكبر ، انطلقت من عقالها تهذى بالمطوى وتكشف عن المكبوت !

أو هى الصورة التى رسمها المجتمع العربى لشاعرته الأولى ، والقصة التى أبوا أن يفسحوا فيها مكاناً لغير « صخر » البطل ، ثم الشقيق معاوية ، ومن عداهما فظلال باهتة أو مهتزة .

---

(١) « الديوان » ص ٨٠ . (٢) « الديوان » ص ٩٠ .

(٣ ، ٤) سبقت الإشارة إلى هذا الموقف فى ص ٣١ .

٦ – وفاة الخنساء

ولقد عاشت الخنساء بعد مقتل بنيها سنين كثيرة . لا نكاد نسمع خلالها خبراً عنها ، حتى ماتت فى البادية .

أما متى ماتت ، فقد كان المظنون ألا تختلف الأقوال فى تحديد عام وفاتها ، بعد إذ ذاعت شهرتها وبعُدصيتها وقيد اسمها فى (ديوان بيت المال) ، بوصفها صحابية ، أم شهداء ، تأخذ رزق بنيها الأربعة[1]

لكننا نجد أقوالا شتى للمحدثين ، يتسع الخلاف فيها حتى يستغرق ثلث قرن أو يزيد !

فإلى جانب القول المشهور بوفاتها عام ٢٦ هجرية (٦٤٦م) – أو عام ٢٤هـ فى أول خلافة عثمان كما نقل الأستاذ عمر رضا كحاله[2] والفرق إلى هنا هين والخلاف يسير – يوجد قول بأنها توفيت فى زمن معاوية ، دون تحديد للسنة[3] أو سنة ٦٦٤م وهو قول « جبرييلى » وتبعه فؤاد البستانى فى (الروائع) مستكثراً أن تكون قد دبت على العصا وقد ماتت فى عامها الحادى والسبعين ، – على القول بوفاتها سنة ٢٦هـ – « وهو عمر تدركه النساء على الغالب دون أن يدببن من الكبر على العصا » ومستظهراً بعد ذلك ، بخبر عن « علقمة بن جرير » أنه قال لمعاوية إنه رأى الخنساء فى عرس ابنتها وقد هرمت .

وفات الأستاذ فؤاد ، أن علقمة لم يحدد زمن رؤيتها ، فغير بعيدٍ أن يكون قد رآها فى عهد عثمان أو عمر .

كما فاته أن المرأة فى بيئة الخنساء ، تنضج مبكرة ، وتعجلها الشيخوخة قبل الأوان ، وقد تدب على العصا من كبر قبل سن السبعين !

أما « لويس شيخو » فحدد لوفاتها عام ٦٨٠م

وكان هذا الخلاف الواسع المدى – بين عامى ٦٤٦ ، ٦٨٠ – جديراً

---

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٢٧ .

(٢) « أعلام النساء » ط دمشق .

(٣) دائرة معارف البستانى -- مادة خنساء .

بأن ينبه هؤلاء جميعاً إلى ما فى محاولتهم تحديد عام مولد الخنساء من تعسف وخطأ ، إذ كانت يوم وُلدت ، مغمورة مجهولة ، لا فرق بينها وبين ألوف من بنات سليم ، وملايين من بنات مضر وعدنان !

وإذ نرجع إلى الأقدمين ، نراهم وقفوا بأنبائها عند استشهاد بنيها الأربعة فى القادسية ، وأن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه « كان يعطيها أرزاق أولادها حتى قبض » (١)

والنص صريح فى أنها أدركت عهد عثمان رضى الله عنه .

ونؤثر أن نقف بها عنده ، دون أن نحاول تحديد عام بعينه لوفاتها ، وكذلك فعل « كرنكوف » فى دائرة المعارف الإسلامية ، إذ اكتفى بالقول إنها « عمرت إلى أن أدركت نصر الإسلام المبين » .

فتلكن وفاتها فى أوائل خلافة عثمان — رضه — أو فلتكن بعد ذلك بقليل أو كثير ، فالأمر عندنا ليس بذى خطر كبير ، إذا قدرنا أن الشاعرة — التى تعنينا — قد أتمت حياتها الشعرية قبل ذاك بأمد ، وأن « تماضر » قد خرجت فعلا من الحياة المادية عقب واقعة القادسية ، فلم يبلغنا من أنبائها إلا ذاك المروى عن« علقمة بن جرير » إذ ذكر لمعاوية أنه رآها وقد هرمت فى عرس ابنتها.

وليس يعجزنا أن نتمثلها فى أعوامها الأخيرة ، عجوزاً هرمة ، تدب على عصاً ، هاذية بأوجاعها وأحزانها ، نائحة على السادات من مضر .

وقد أقفرت دنياها من الأب ، والزوج ، والشقيق ، والأخ ، والأبناء ، ولم يبق من أسرتها إذ ذاك سوى ابنتها « عمرة بنت مرداس » تستقبل الحياة بعيداً عن الشيخة الهرمة الهاذية .

ولسنا نعلم هل شهدت « عمرة » احتضار أمها ، كما لا ندرى على التحديد من أغمض عينيها اللتين قرحهما البكاء ، ونزع عنها صدارها الحزين ، واستبدل به الكفن ، ولا هؤلاء الذين حملوها على الآلة الحدباء ، حتى أضجعوها فى مرقدها الأخير تحت رمال البادية .

ولم يرثها أحد من قومها . . .

---

(١) « الإصابة » : ٨/٣٥٢ ، ومثله فى « الاستيعاب » .

ولم ترثها بنتها « عمرة » وقد رثت أباها مرداساً ، وأخاها العباس بن مرادس ، وابنها الأقيصر . . .

بل لعل أحداً لم يبكها، وقد وجدوا فى الموت راحة لها من محنة الحياة . . .

* * *

وآن للنائحة أن تصمت . . .

وآن للمسهدة الحزينة أن تنام . . .

لكن أصداء مراثيها فى «صخر» ظلت تتردد ملء الفضاء العريض على مر العصور .

وبقى حزنها على «صخر» جديداً ، يتناقله الناس جيلا بعد جيلا . وعز على مثل « أبى العلاء المعرى » أن يتصورها قد نسيت حزنها فى العالم الآخر ، أو شغلت عن صخر بنعيم الفردس ، فهو يتمثلها — فى جنة الغفران — قد نبذت مكانها فى الفردوس ، ومضت إلى طرفها الأقصى قريباً من النار تطلع على « صخر »[1] الذى شغلت به فى أخراها كما شغلت به فى دنياها . . .

(١) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء — ص ٣٠٠ ط ثانية ، ذخائر .

الفصل الثالث

الخنساء الشاعرة

١ ـ مجالها الفنى

٢ ـ منزلتها عند معاصريها

٣ ـ مكانتها عند القدامى

٤ ـ مكانتها عند المحدثين

٥ ـ شاعرية الخنساء فى الميزان النقدى

الفصل الثالث

الخنساء الشاعرة

١ ــ مجالها الفني

قلت إن تاريخ الأدب العربي احتفل بمولد الشاعرة يوم مات أخوها صخر . ذلك أن النقاد والمؤلفين الأقدمين احتفوا بها راثية فحسب ، ثم هم لا يكادون يعترفون بها شاعرة قبل أن تفجع في أخيها الأعز ، وهذا « ابن سلام » لا يذكرها إلا في طبقة شعراء المراثي ، وجاء في ترجمتها بالاستيعاب : « كانت تقول البيت والبيتين ، حتى قتل شقيقها معاوية ، ثم أخوها صخر »(١)

وعلى ذلك ذهب أكثر الدارسين ، ولم يحاول أحد من المحدثين أن يتعرض لهذا الرأي بنقد أو مناقشة حتى ليبدو أن الأمر فيه قضية مسلمة لا موضع فيها للخلاف.

ولعلهم لو اهتموا بترتيب شعر الخنساء ترتيباً زمنيا ، لوجدوا مجال القول في هذه القضية ذا سعة ، لكن أحداً منهم لم يهتم بتلك المحاولة ، ومن ثم بقيت القضية أشبه بالمقرارات التي لا تحتمل الجدل . وبخاصة إذا ذكرنا أن قومنا اعتادوا ألا يعترفوا بالنساء غير راثيات ، متأثرين في ذلك بأوضاع مجتمعهم الذي وأد الأنثى عاطفيًّا واجتماعيًّا .

وكنت أود أن أناقش هنا ، قضية المجال الفني الذي حصروا فيه شاعرية المرأة العربية بالرثاء ، فالأمر فيه لا يقتصر على « الخنساء » وحدها ، وإنما يتجاوزها إلى الشاعرة العربية بوجه عام ، ولم يكن « الأب لويس شيخو » في اهتمامه بمراثي شواعر العرب ، إلا متأثرا بفكرة سيطرت على الجو الأدبي من قديم : « فابن سلام » لم يجد في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، مكاناً لغير الخنساء التي وضعها ثانية شعراء المراثي الأربعة المتقدمين (٢) . « والبحتري »

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٢٧

(٢) الطبقات : شعراء المراثي .

فى (حماسته) أفرد الباب الأخير لما اختاره من شعر الرثاء، فقصره على « مختار أشعار لجماعة من النساء فى المراثى » وجاء فيه بأبيات لعشر راثيات .

والقضية فى رأيى ، أحق بأن تناقش فى بحث مستقل مفرد ، وقصارى ما أستطيع قوله هنا ، فى هذه الدراسة الخاصة بالخنساء ، هو أن اشتهار شاعرتنا الجاهلية الأولى بالرثاء واتجاهها بكل طاقتها الشعرية إليه بعد فجيعتها فى صخر ، ربما كان مبررا لرأى النقاد فى مجالها الفنى ، ومعطياً بعض العذر لهم ، إذا هم قصروه على الرثاء ، وإن تكن الدراسة الناقدة — غير المتأثرة بسيطرة الفكرة — تهتدى إلى روائع من شعرها فى غير الرثاء، على ما سوف نبينه فى محاولتنا الترتيب الزمنى لقصائدها ، والوقوف عند ما أبقى الزمن من شعرها قبل أن يموت صخر .

أجل ، نستطيع أن نلتمس العذر للنقاد فى موقفهم من الخنساء ، ولكنا لا نستطيع أن نطلقه حكماً عامًّا على شواعر العرب ، وكأن ليس فيهن إلا خنساوات، وإن تعددت الأسماء واختلفت بهن العصور والبيئات .

وما تزال هذه الفكرة النقدية مسيطرة على مؤرخى الأدب العربى فى عصرنا ، وبحسبك أن تقرأ قول « بروكلمان » فى حديثه عن المرثية العربية القديمة : « على أن إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة ، كما كان لائقاً بنسائها وخاصة بالأخوات . ومن ثم بقى تعهد الرثاء الفنى من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التاريخى »[1].

وهذا هو ديوان « أنيس الجلساء » قد ذُيل بمراثى ستين شاعرة عربية، من الجاهلية وصدر الإسلام ، حتى ليخيل إليك أن حواء العرب تظل معقودة اللسان معطلة الحس صماء الوجدان، إلى أن تقوم مناحة فتحل عقدة لسانها، وتفجر ينابيع الحس فى وجدانها !

ويشهد تراثنا الأدبى ، أن الأديبة العربية حققت وجودها الفنى فى الرثاء وغيره ، لكن مؤرخى الأدب لم يحتفلوا بغير الراثيات .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى : ١ / ٤٨ من الترجمة العربية — ط دار المعارف

وبحسبنا شاهداً على ذلك ، أن « ابن سلام » لم يعترف للشاعرة « ليلى الأخيلية » بمكان مع شعراء طبقاته ، بل ذكرها عرَضاً فى ترجمته للنابغة الجعدى – وهو عنده أول شعراء الطبقة الثالثة – فقرر أن « ليلى غلبت عليه [١] »

وكذلك اعترف لها « الأصمعى » بالغلبة على « الجعدى » [٢] بل إن ليلى عند بعض النقاد ، أشعر من الخنساء [٣] .

وإنما أهدرها ، أنها خرجت عن المجال الفنى الذى حددوه بالرثاء ، للشاعرة العربية .

كما أهدر وجودُ أخريات ، ألقى بهن مؤرخو الأدب فى منطقة الظل ، مع ما ألقوا من أخبار وأشعار للخنساء ، فى غير الرثاء .

ويقتضى تحرير الموقف ، أن نتتبع آثار الأديبات العربيات ، ونجمعها من شتى المصادر والمراجع ، وهذا ما لا سبيل إليه الآن ، فى مثل هذه الدراسة الموجزة للخنساء .

٢ – منزلتها عند معاصريها

ظفرت « الخنساء » بتقدير النقاد والدارسين منذ كانت ، ولا تزال حتى اليوم موضع العناية والتقدير ، فلقد أنصفها التاريخ الأدبى للعرب إلى حد غير مألوف ولا معتاد فى النساء ، وإذا قسنا حظ الخنساء بغيرها من شواعر العرب ، ألفيناها قد نالت أكثر مما كان يُرجَى لواحدة منا فى البيئة التى جمعت تراث الشعر الجاهلى وصدر الإسلام ، وأنزلت أصحابه منازلهم .

وقد أتيح لها أن تشهد بعينها لألاء مجدها ، وأن تجذب أسماع شيوخ الشعر وأمراء البيان فى سوق عكاظ ؛ إذ يُروى أنها جاءت الموسم ، وقد جلس «النابغة الذبيانى» للحكم بين الشعراء ، فأنشدته بعض مراثيها فى صخر ، بعد أن سبقها آخرون ، منهم الأعشى وحسان بن ثابت ، فقال لها النابغة : والله لولا

(١) طبقات الشعراء : ٢٧ ط ليدن .
(٢) فحولة الشعراء : ٣٤ – وانظر معه : العقد الفريد ٤ / ٧١
(٣) فحولة الشعراء : ٣٧ ، ٤٥ .

أن أبا بصير سبقك فأنشدني آنفاً ، لقلت إنك أشعر من بالموسم[١] .

وفى رواية أخرى أنه قال : لولا أن هذا الأعمى سبقك لقلت إنك أشعر الإنس والجن[٢] .

قالوا فغضب حسان ، وقال للنابغة : والله لأنا أشعر منك ومنها .

وتختلف الروايات بعد ذلك فى بقية القصة بعد أن قال « حسان » ما قال .

ففى (الشعر والشعراء) أن النابغة قبض على يد حسان وهو يقول :

— يا ابن أخى ، إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه . فأنشدته ، فقال :

« والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك »

فقالت له الخنساء :

« والله ولا ذا خُصيتين »

والذى فى (نقد الشعر[٣]) أن النابغة سأل حسان عن أشعر بيت قاله ، فأنشد :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فعاب عليه «النابغة» قوله « الجفنات »وهى جمع قلة ، و «الغر» وكان الأفضل أن يقول البيض لأن الغرة بياض قليل فى لون آخر غيره . و « يلمعن بالضحى » ولو قال « بالدجى » لكان أحسن . و « يقطرن » ولو قال « يجرين » لكان أحسن ، إذ كان الجرى أكثر من القطر .

وكذلك روى « أبو الفرج » القصة[٤] ، بإضافة نقد بيت حسان إلى

---

(١) قدامة بن جعفر : « نقد الشعر » : ص ١٨ ط الجوائب . و« الموشح » ٦٠ . والأصفهانى : الأغانى ١٠ / ٢٢ ط دار الكتب . والشريشى : « شرح مقامات الحريرى » ٢٣٣

(٢) ابن قتيبة : « الشعر والشعراء » : ٣٠١ .

(٣) قدامة بن جعفر : « نقد الشعر » ص ١٧ : ١٩ — الجوائب .

(٤) « الأغانى » ١٠ / ٢٢ ط دار الكتب .

النابغة ومثله « المرزبانى » الذى روى النقد مجملا .

على أن « ابن قتيبة »[١] عزا النقد إلى الخنساء، وكذلك «الشريشى». وهو القول الذى أخذ به أكثر المؤلفين فى عصرنا[٢] حتى الذين ارتابوا فيها واتهموها بالوضع .

وقصة هذا البيت ونقده موضع اتهام من قديم ، إذ يحكى « ابن جنى » عن «أبى على الفارسى » أنه طعن فى صحة هذه الحكاية، وإن كان — فيما أعلم — قد انفرد بهذا الطعن. حتى جاء عصرنا فرأينا أكثر المؤلفين يولعون بهدمها وإعلان بطلانها ، وأظهرُ حجةٍ لهم فى رفض القصة ، أن عصر"الخنساء" قد سبق عصر المصطلحات اللغوية بزمن ، وهذا النقد يتكئ على التفرقة بين جمع المؤنث وجمع التكسير ، من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة فى عصر التدوين . كما أن فى النقد كثيراً من التكلف والمبالغة ، وهذه نزعة لم تعرف إلا حينما درست علوم البلاغة وزاحم العقلُ والمنطقُ الذوقَ والفطرة .

بهذا قال المعلم بطرس البستانى الذى ذهب إلى أن« الرواية ربما كانت أثراً باقياً من عداء القرشيين للأنصار، أريد باختلاقها الطعن فى شاعرية حسان[٤]» .

والأستاذ فؤاد أفرام البستانى الذى صرح بأنه إنما أورد القصة « على سبيل التفكهة ليس غير[٥]» .

والأستاذ طه إبرهيم الذى لم يشك فى أنها صنعت فى القرن الثالث « بعد أن دونت العلوم ودرس المنطق وعرف شىء من رسوم البلاغة[٦] » .

والدكتور الحوفى الذى قرر أن هذه التفرقة بين الجموع من حيث القلة والكثرة

---

(١) « المعارف » : ١٠٥ .

(٢) شرح المقامات الحريرية ٢٥٣/٢ .

(٣) « أنيس الجلساء » ص ٩ — طه إبراهيم : « تاريخ النقد الأدبى للعرب » ص ٢٠
طه الحاجرى : « فى تاريخ النقد » ٢٠ — أحمد الحوفى: « المرأة العربية فى الشعر الجاهلى » ٤٧٢ .

(٤) « أدباء العرب » : ١٩٥ الطبعة الخامسة ، بيروت .

(٥) « الروائع »، مقدمة ٢ ط بيروت .

(٦) « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » ص ٢٠ .

« من اصطلاح النحاة فى عصر التدوين[١] » .

ولا أريد أن أطيل الوقوف هنا لأثبت هذا النقد الدقيق للخنساء أو أضيفه إلى النابغة ، كما لا أحاول أن أثبت هذا النقد جملة أو أنفيه ، إذ تعوزنا فى الحالين وسائل القطع فى الأمر بيقين ، وإذا كان الذين أنكروها قد اعتمدوا على سبق الخنساء لعصر المصطلحات العلمية ففاتهم أن النحاة لم يضعوا تلك المصطلحات إلا بعد استقراء طويل لاستعمال العرب فى الجاهلية لصيغ الجموع ، وتتبع دقيق لدلالات هذه الصيغ ، وهو ما انتبه إليه «الدكتور طه الحاجرى» إذ يقول[٢] : « وإنما مبلغ دلالة القصة أن العرب كانوا يفرقون بطبيعة حسهم اللغوى بين صيغ الجموع . وليس هذا مما يحتمل الإنكار ، بل هو الأمر الطبيعى وهو الذى بنى عليه علماء النحو كلامهم عن جموع القلة والكثرة ، وإلا فمن أين لهم هذه التفرقة بينها إلا أن يكونوا صدروا بها عن الاستعمال العربى الذى يفرق بين هذه الصيغة وتلك ، دون أن يكون هذا الاستعمال صادراً عن ذهن علمى كذهن الخليل وسيبويه »

و « قدامة بن جعفر » الذى استظهر به الدكتور الحوفى فى اتهام النقد بالوضع ، لم يشر إلى هذا الاتهام ولا أورده فى موضع الشك والارتياب ، وإنما الذى عناه ، هو مناقشة ما يروون من طعن النابغة على حسان ، قال : « على أن من أنعم النظر ، علم أن هذا الرد على حسان — من النابغة أو من غيره — خطأ ، وأن حسان مصيب ، .. فمن ذلك أن حسان لم يرد بقوله أن يجعل الجفان بيضاً ، لكنه أراد المشهورات ، كما يقال يوم أغر ، ويد غراء .. وأما قول النابغة فى « يلمعن بالضحى » وإنه لو قال « بالدجى » لكان أحسن ، فهذا خلاف الحق وعكس الواجب ، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد الضياء ، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه ... فأما قول النابغة — أو من قال — إن الجرى أكثر من القطر ، فلم

---

(١) « المرأة العربية فى الشعر الجاهلى » . ص ٤٧٢ .

(٢) « فى تاريخ النقد » — ص ٤٣ ط ١٩٥٣ .

يردحسان الكثرة ، وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الناس ويعتادونه من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن سيفه يقطر دماً ، ولم يسمع : سيفه يجرى دماً . ولعله لو قال : « يجرين دماً » لعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع إلى ما لم تجر عادة العرب بوصفه[1] »

والسياق يؤكد أن « قدامة » لم يشك فى القصة ، وإنما اطمأن إليها ورد مدافعاً عن « حسان » فلست أدرى من أين للدكتور الحوفى أن يستشهد بقدامة ، فى اتهام القصة أصلا ، والشك فيها ! !

* * *

وأيًّا ما كان الأمر ، فالذى أجمع عليه أكثر الرواة أن النابغة حكم للخنساء – بعد الأعشى – على شعراء الموسم ، وفيهم حسان بن ثابت ، وإن اختلفوا فيما بعد ذلك من مسألة النقد لبيت حسان .

وهو حكم جدير بأن تعتز به الخنساء ، من أمير الشعراء فى أزهى عصور الشعر العربى الأصيل .

وسيأتى بعد « النابغة » نقاد يضعون الخنساء فى غير هذا الموضع الأول ، لكن يظل حكمُ النابغة لها ، يلقى عليها هالة من المجد ، وليس يطفىء سنا هذه الهالة ، أن تكون القصة كلها موضوعة ، بل لعل ذلك الوضع – إن صح – أجدر بأن يؤيد منزلة الخنساء الشاعرة عند الأقدمين ، وإلا فهل ترى أحداً كان يكترث لوضع قصة كهذه ، لو لم يسندها رأىٌ عام شائع ، يحسن تقدير الخنساء ، ويعبر عن مكانتها فى المجتمع الأدبى للعرب ؟ وهل كان المؤلفون الذين ذكرناهم – وهم مراجعنا فى الأدب وتاريخه – يسجلون حكماً للخنساء بأنها أشعر الإنس والجن ، ويضيفونه إلى شيخ شعراء الجاهلية ، لو لم يكن هذا التسجيل صدى لشهرة ذائعة واستجابةً لصيت مردد . ؟

وإذا كنا اليوم ، ندخل فى وزن الخنساء ، اعتبارات فنية جديدة ، فحسبها أنها – بموازين عصرها – قد ظفرت بذاك الحكم القديم من شاعر اختاره

---

(١) « نقد الشعر » : ١٩ ط الجوائب ١٣٠٢ .

معاصروه حكماً بين شعرائهم ، فكان هذا الاختيار اعترافاً صريحاً بمكانته فيهم ، واطمئناناً إلى دقة بصره بشعر عصره ، وأقدار رجاله .

* * *

وندع هذا التقدير الأول ، فيلقانا فى صدر الإسلام ، ما روى فى طبقات الصحابة ، وفى السيرة النبوية ، من إعجاب الرسول صلى الله عايه وسلم بشعرها ، وإصغائه إليه ، واستزادته منه . وقد نقلنا آنفاً عن ترجمتها فى طبقات الصحابة ، نبأ وفودها على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنشادها إياه شعرها وهو يقول : « هيه يا خناس ! » ويومئ بيده .

ونضيف إليه هنا ما جاء فى ترجمة « عدى بن حاتم الطائى » إذ وفد على الرسول مبايعاً ، مع قومه من بنى طيئ . فقال : « يا رسول الله ، إن فينا أشعر الناس ، وأسخى الناس ، وأفرس الناس »

فلما سأله النبى صلى الله عليه وسلم أن يسميهم أجاب :

« أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر ، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد — يعنى أباه — وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب . » فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس كما قلت يا عدى : أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد ، وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب[1] » . وليس وراء هذا لشاعرة مطلب .

٣ — مكانتها عند الأقدمين

ويمضى العصر الإسلامى الأول ، وتمضى معه « تماضر » من الحياة الدنيا ، لكنها تترك دوياً يملأ سمع الزمان ، وشهرة تتناقل مع الأجيال ، فهم يروون أن « عبد الملك بن مروان » سأل فى مجلس له : أى نساء الجاهلية أشعر ؟ فقال الشعبى : الخنساء . فسأله عبد الملك : ولم فضلتها على غيرها ؟ قال : لقولها :

وقائلة والناس قد فات خطوها   لتدركه : يا لهف نفسى على صخر

---

(١) « خزانة الأدب » ١ / ٢٠٨ .

ألا ثكلت أمُّ الذين غدوا به إلى القبر، ماذا يحملون إلى القبر !

فقال عبد الملك : أشعر منها والله التى تقول :

مهفهف الكشح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر [١]

لا يأمن الناس ممساه ومصبحه فى كل فج وإن لم يَغْزُ يُنْتَظَرُ

وذكروا أن « جريراً » سئل : من أشعر الناس ؟

قال : أنا ، لولا هذه الخبيثة — يعنى الخنساء — . فسألوه : بم فضلتك ؟

أجاب ، بقولها :

إن الزمان وما تفنى عجائبه أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراسُ

أبقى لنا كلَّ مجهول وفجّعنا بالحالمين فهم هامٌ وأرماس

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وكان « بشار » يقول : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . قيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك فاقت الرجال [٣] .

وحدثوا أن « المفضل الضبى » دُعى يوماً إلى مجلس المهدى ، فسأله : يا مفضل ، ما أفخر بيت قالته العرب ؟

أجاب ، قول الخنساء :

فاستوى الخليفة جالساً ، وكان متكئاً — وسأله : أى ؟ قال : قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فأومأ الخليفة إلى أحد جلسائه وهو يقول للضبى : قد قلت له (هذا) فأبى علىّ .

---

(١) وتمضى الرواية فتقول إن عبد الملك سأل الشعبى : يا شعبى ، هل شق عليك ما سمعت ؟ أجاب : إى والله يا أمير المؤمنين ، أشد المشقة .

ويلاحظ على هذا الخبر ، أن البيتين اللذين فضلهما « عبد الملك » ليسا لشاعرة ، وإنما هما من قصيدة أعشى باهلة ، فى رثاء أخيه المنتشر .

راجع طبقات ابن سلام (ص ٥١) طبع أوربا ، وأمالى اليزيدى (ص ١٣ ط الهند) .

(٢) هذه رواية الشريشى فى شرح المقامات (٢٣٣) ورواية « الأغانى » :

* إن الزمان وما يفنى له عجب * وانظر الديوان : صفحة ٥١ .

(٣) الشريشى . « شرح المقامات » ٢٣٣ .

قال الشعبي : الصواب مع أمير المؤمنين[١] .

* * *

ومضت السنون والقرون ، و « الخنساء » ملء سمع الزمان ، ومكانها بين فحول الشعراء ظاهر مرموق ، أما بين النساء، فرأى الكثرة « من علماء الشعر أنه لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها[٢] » .

لم يشذ عن ذلك – فيما قرأت – سوى « الأصمعى » وعبد الملك بن مروان : ففى كتاب « فحولة الشعراء للأصمعى » أنه سأل راويته أبا حاتم السجستانى : « أشَعرتَ أن ليلى الأخيلية أشعر من الخنساء ؟ » [٣].

وصيغة السؤال تشعرنا بأن الأصمعى كان يلقى هذا الرأى فى الشاعرتين، وهو يحس أنه يخالف الرأى العام المعترف للخنساء بأنها أشعر النساء .

وعبارة الأصمعى هنا ، تذكرنا بالذى نقلنامن قول «عبد الملك» للشعبى وقد خالفه فى الحكم للخنساء بأنها أشعر نساء الجاهلية ، إذ أدرك من فوره أنه يصدم حس سامعه بما يخالف الرأى الشائع فى تفضيل الخنساء، فهو يسأله :

« يا شعبى ، هل شق عليك ما سمعت؟ » أجاب :

« إى والله يا أمير المؤمنين ، أشد المشقة ! »

والسؤالان على ما يبدو من مساسهما بمكانة الخنساء ، صريحا الدلالة على ما اطمأن إليه الناس من زعامة الخنساء لشواعر العرب ، فما يكاد يخالف على هذا أحدٌ إلا وهو يحس أنه يشذ عن الرأى الأدبى العام، ويشق على سامعيه .

فليكن رأى « الأصعمى » أن ليلى الأخيلية أشعر من الخنساء ، وليكن رأى «عبد الملك» قبله أن أشعر منها التى تقول كذا وكذا ، ولنضف إليهما أن « ابن سلام[٤] » جعل الخنساء ثانية شعراء المراثى الأربعة المفضلين ، مقدماً عليها

---

(١) الشريشى – « شرح المقامات » ٢٣٣ .
(٢) « شرح المقامات » ٢٣٣ . والإصابة /٦٧٨ .
و « بلاغات النساء » لابن طيفور ٢٠٤ ط القاهرة ١٣٢٦ .
(٣) ص ٣٧ ، ٤٥ ط ١٩٥٣ .
(٤) طبقات فحول الشعراء : ص ١٦٩ ط . دار المعارف .

« متمم بن نويرة » فالأمر فى كل حال لا يعدو ما نراه من اختلاف علماء الشعر ونقاده فى المفاضلة بين شعراء الطبقة الواحدة ، فقد اختلفوا فى فحول الشعر الجاهلى « امرئ القيس والنابغة وزهير » أيهم أشعر ، ثم اختلفوا فى أمراء الشعر الأموى « جرير والفرزدق والأخطل » أيهم مقدم على صاحبيه ، وانقسم الناس فريقين فى البحترى وأبى تمام أيهما أشعر من صاحبه ، ثم لم يكن الخلاف فى هؤلاء أو أولئك بحيث ينزل بأحدهم عن طبقته ، أو يجحد مكانه بين نظرائه وأنداده .

على أن « المبرد » قد وضع الشاعرتين معاً ، وإن بدأ بالخنساء ، قال : « كانت الخنساء وليلى الأخيلية فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول ، وقلما رأيت امرأة تتقدم فى صناعة » [١].

وقلما يخلو كتاب من الكتب المؤلفة قديماً فى الأدب العربى ، من ذكر للخنساء أو استشهاد بشىء من شعرها : فاليزيدى مثلا يختار مرثية لها فى أماليه[٢].

وكذلك فعل « البحترى » فى حماسته[٣] .

والمبرد ، يؤثرها بالذكر فى معرض الحديث عن أحسن المراثى .

وقدامة بن جعفر يستشهد بشعر لها فى المختار من أبيات الرثاء ، ثم يعرض لنقد النابغة لبيت حسان ، دون مساس بحكمه المشهور للخنساء على شعراء الموسم [٤].

ولم ينسها أبو العلاء فى (رسالة الغفران) بل اختارها ، دون غيرها من الشواعر ليلقاها فى رحلته إلى العالم الآخر ، بين من لقى من الشعراء [٥]

واحتفل بها أبو الفرج الأصفهانى أيما احتفال ، باعتبارها من الشعراء

---

(١) « العقد الفريد » : ٤ / ٧١ .

(٢) « أمالى اليزيدى » ص ٤٩ ط حيدر أباد ١٩٤٨ .

(٣) ط الرحمانية ، ص ٤ وللخنساء فيها أربع مرات . انظر ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٤) « نقد الشعر » ط الجوائب .

(٥) رسالة الغفران — تحقيق بنت الشاطىء ص ٣٠٠ — ط ثانية ذخائر .

الذين اختير شعرهم للأصوات المئة التى تغنى بها المغنون أيام الرشيد [١] .

وإن لم يفتنا أن نلحظ أن « أبا تمام » فى (حماسته) لم يأت بشىء من شعرها فى باب المراثى ، مع أنه جاء فى الباب بمختارات من مراثى شعراء ثلاثة ، دخلوا فى حياتها :

ففيه مرثية لخاطبها « دريد بن الصمة » فى أخيه . [٢]

وأخرى لأخيها « صخر » يرثى معاوية [٣] .

وثالثة لابنتها « عمرة بنت سرداس » فى أخيها العباس . [٤]

* * *

ولم تكن عند مؤرخى الأدب فى المغرب مجهولة ولا مغمورة ، فقد اهتم بها ابن رشيق فى (العمدة) والحصرى القيروانى فى (زهر الآداب) .

وابن خلدون فى (تاريخه) .

٤ ـ مكانتها عند المحدثين

ولا تزال فى عصرنا موضع عناية المؤلفين والدارسين. ومن شاء فليرجع إلى :

« تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان .

و « شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام » لبشير يموت

و « شهيرات النساء » لقدرية حسين .

و « أعلام النساء فى عالمى الجاهلية والإسلام » لعمر رضا كحالة .

و « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » لزينب فواز .

و « أدباء العرب فى الجاهلية والإسلام » لبطرس البستانى .

و « المرأة فى الشعر الجاهلى » لأحمد الحوفى .

و « الخنساء فى مرآة عصرها » لإسماعيل القاضى .

ونشر الآباء اليسوعيون ديوانها عام ١٨٨٨ ، كما أفردت لها حلقة فى سلسلة

---

(١) « الأغانى » : ج ١٣ ط بولاق ٢ وانظر معه ج ٥ ، ج ١٠ ط دار الكتب .

(٢ ، ٣ ، ٤) ديوان الحماسة : الباب الثانى ـ صفحات ٣٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٨ على التوالى .

الروائع بقلم فؤاد أفرام البستانى . وترجم لها المعلم بطرس البستانى فى دائرة معارفه .

كما اهتم بها المرحوم طه إبراهيم فى كتابه عن تاريخ النقد الأدبى للعرب ، وطه الحاجرى « فى تاريخ النقد » وبدوى طبانة فى « دراسات فى النقد »

وبطرس البستانى يراها « أشعر النساء وتفضل على الرجال» .

وفؤاد أفرام البستانى يقول إنها « أهل لما ظفرت به من إجماع علماء الشعر على تقديمها على شواعر العرب » .

والحوفى يقرر أنها « عند المحدثين زعيمة شواعر الجاهلية والإسلام فى الرثاء »

وعناية المستشرقين بها لا تقل عن عناية الشرقيين ، كتب لها « كرنكوف » فى « دائرة المعارف الإسلامية » ترجمة وافية ، وألف جبريللى كتاباً عن « عصر الشاعرة الخنساء وحياتها » طبع بالإيطالية فى « فلورنسه » ١٨٩٩ [١] .

ونشر « رودوكاناكيس » كتاباً عن « الخنساء ومراثيها » طبع بالألمانية فى « فينا » ١٩٠٤ [٢]

كما نشر الأب كوبييه ديوانها بالفرنسية فى بيروت ١٨٨٩ وترجمت قصائد لها فى عدة دواوين أوربية للشعر الشرقى [٣].

وترجم لها « بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العرابى » .

٥ ــ شاعرية الخنساء فى الميزان النقدى

ا ــ الخنساء فى نظر النقاد الأقدمين :

لم يكن الاعتراف بمكانة الخنساء حائلا دون تعرضها للنقد . وقبل أن نتتبع هنا آراء النقاد فيها ، نحاول ــ بادئ ذى بدء ــ أن نستبين المجال الفنى الذى حدده الأقدمون للخنساء .

ولقد قلت فى حديثى عن حياة « تماضر » إن تاريخ الأدب العربى احتفل

---

(١) Gabrieli : I Tempri, la Vita e il Canzoniere della Poetssa al Hansa.

(٢) Rhodokanakis : al-Hansa und ihre Trauerleider.

(٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية – مادة الخنساء .

بمولد الشاعرة يوم مات أخوها صخر ، وهذا ابن سلام ، وهو من أوائل علماء الشعر ، قد حصر مجالها الفنى فى الرثاء وحده . وعلى هذا جرى المؤلفون من بعده ، لا أستثنى منهم أحداً من المتقدمين أو المتأخرين ، حتى بدا كأن الأمر فيه قضية مسلمة ، لا مجال فيها لخلاف أو مناقشة .

ومع ذلك ، فإن محاولتنا ترتيب شعرها ترتيباً زمنياً ثم ترتيباً موضوعياً – وهى المحاولة الأولى من نوعها فيما نعرف – كشفت لنا عن مجال للقول فيما ذاع وشاع من قصر المجال الفنى للخنساء على الرثاء.

فنى الديوان قصيدة من أجمل شعرها ، وصفت بها سباقاً بين أبيها وأخيها صخر ، ومستبعَد أن تكون قد قالت هذه القصيدة الرائعة قبل وفاة صخر .

وفيه كذلك ، مرثية لزوجها مرداس ، وقد رجحنا أنه مات قبل نقطة التحول فى حياتها بفجيعتها فى صخر .

وفيه مراث لشقيقها معاوية ، والثابت عند كل من أرخوا للخنساء ، أنه قتل قبل صخر بزمن .

ثم إنهم فى تأريخهم لحياة الخنساء ، بدأوا قصتها بخطبة دريد بن الصمة لها ، فردته بأبيات من الشعر ، وهى بعد لا تزال فى مطلع الشباب . ولما هجاها مغيظاً من مهانة الرفض ، قيل لها : « ألا تجيبين دريداً إذ هجاك »؟ فأجابت : « لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه » [1] .

وفى (الأغانى) أنها سئلت أن تهجو « قيس بن الخطيم : شاعر الأوس » وما كانت لتُسأل مثل هذا ، لو لم يعرف القوم أنها شاعرة تحسن الهجاء .

لم تكن «الخنساء» إذن معطلة الشاعرية لا تقول غير البيت أو البيتين حتى مات صخر [2] ، ولكن القوم جروا من قديم الزمان على أن يقصروا المجال الفنى للنساء بعامة على الرثاء ، وهى قضية أشرنا إليها فى الفصل الثالث ورأينا أنها فكرة عامة مسيطرة ، تسرى على الخنساء كما تسرى على الجنس

---

(١) الأغانى : ٢١/١٠ دار الكتب .

(٢) الاستيعاب : ١٨٢٧/٤

كله ، ويضاف إلى هذا أن استئثار « صخر » بالحظ الأوفى من عاطفة الخنساء وشعرها ، جعل القوم يؤثرونه بعنايتهم ، ولو استعرت لغة الفن المسرحى اليوم ، لقلت إن ظهور صخر فى شخصية البطل الأول فى قصة الخنساء ، جعل القوم يسلطون الأضواء عليه ، ويتركون ما عداه ومن عداه ، فى منطقة الظلال .

فلا عجب أن أرخوا حياتها الفنية بموت صخر وقصروا مجالها الشعرى على الرثاء ، أما ما قالته قبل وفاة صخر ، وأما ما قالته فى غير رثاء صخر ، فلا يكاد يتعدى فى تقديرهم « البيت أو البيتين » ولو كان من روائعها الفنية كقصيدتها فى السباق ، ومرثيتها لزوجها مرداس ، أو كان من قصائدها الطوال نسبياً كبعض مراثيها فى شقيقها معاوية .

وقد وقف الأقدمون فى نقد الخنساء ، عند قصر مجالها الفنى على الرثاء ، ثم الموازنة بينها وبين شعراء طبقتها موازنة مجملة ، تقف عند تحديد المكان الذى يرونها أهلا له بين شعراء المراثى ، كما فعل ابن سلام ، أو بين شواعر العرب كما فعل الأصمعى وغيره[١] .

وربما كان إغفال أبى تمام لمراثيها فى (حماسته) معبراً عن موقف له منها ، أو رأى له فيها غير صريح .

أما المحدثون ، فلبعضهم فى هذا النقد محاولات محدودة قاصرة المدى ، ولعل المستشرقين هم أول من فتح الباب لنقد جديد : فقد قال « كرنكوف » ما نصه :

« ومن العسير أن نقطع برأى فيما إذا كانت الخنساء قد أضافت بسمات إلى المرثية العربية أو لم تضف ، ولو أننا نكاد نقطع بأن قصائدها ألهمت عدداً كبيراً من شعراء المراثى المتأخرين ومنهم ابنتها عمرة . أما إذا وازنا بين شعرها وشعر غيرها من أصحاب المراثى من معاصريها — وحسبى أن أذكر منهم متمماً

(١) راجع « مكانة الخنساء عند القدامى » بالفصل الثالث من هذا الكتاب .

وأبا ذؤيب ــ فقد حق لنا أن نعترف بأن قصائدها يعوزها ما عندهم من الجمال الشعرى . ولكننا نجد فيها على قصرها بالنسبة لقصائدهم ، حزناً أبلغ صدقاً وإن كنا نجد فيها تكراراً لنفس الأفكار والألفاظ يبعث السآمة فى النفس[١] »

والتقط الدارسون الشرقيون هذه اللفتة الناقدة ، فرددوها هنا فى مصر وهناك فى لبنان ، لكن بعد أن أوسعوها شدًّا ومطًّا !

فالأستاذ فؤاد أفرام البستانى يقول ما نصه :

« فهى شاعرة أكثر منها ناظمة ، وهو ما يروقنا فيها . . وإن كان للبعض ممن عاصرها أو تأخر عنها من الرثائيين ، قوة سبك وجمال شاعرية لا نراهما فى شعر الخنساء . . . أما ما أدخلته من صفات جديدة فى المرثية ، فمن الصعب أن نحدده . . . ولكن ما لاشك فيه أن من تبعها من شعراء الرثاء وشواعره اغترفوا جميعهم من بحرها الفياض بفيض العاطفة البشرية »[٢] ولم يشر السيد إلى عبارة الدائرة بكلمة ، مع أن كلامه هنا كما ترى ، ترديد لنص عبارة « كرنكوف » مع شىء من التقديم والتأخير ، وقدر من هلهلة الفكرة والغلو .

والمعلم « بطرس البستانى » يردد كذلك ما لمحه « كرنكوف » من قِصَر قصائدها ، وصدق تفجعها وحزنها ، وحصر معانيها فى صور محدودة المعانى والتعابير ، على أنه أضاف إلى ذلك كله : غلوّها المسرف ، وضعف مخيلتها ، وخلو معانيها من المعانى الحكمية السامية . قال :

« سائر ديوانها يجرى على هذا النمط من البكاء والتفجع والمغالاة فى مدح أخيها ، ولعل الغلو أظهر خاصة فى الخنساء . . . ورثاؤها عاطفى بحت ، لا يشوبه تكلف ، ولا يرتفع بها الفكر إلى المعانى الحكمية السامية التى نجدها فى رثاء لبيد لأخيه . . . وشعرها خال من القصائد الطوال التى عرفناها فى الشعراء الجاهليين ، فأطول قصيدة لها : « قذى بعينك أم بالعين عوار » لا تتجاوز

---

(١) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة الخنساء .

(٢) « الروائع » العدد ٢٨ المقدمة .

الخمسة والثلاثين بيتاً . وأكثر شعرها أبيات ومقطعات ، ولعل ذلك ناتج بعضه عن ضعف المخيلة فى المرأة ، وبعضه الآخر عن وحدة الموضوع ، فهى لم تطرق غير الرثاء بما فيه من تفجع ومدح. همها الرثاء على صخر وإطراء شمائله ، مما جعل أفكارها محصورة فى صور محدودة المعانى والتعابير . » [١].

و « الدكتور الحوفى » يردد هذه الأحكام النقدية بعينها ، مع إطلاقها على مراثى النساء بعامة . قال : [٢] .

« ويمتاز رثاؤهن بندرة الحكمة فيه . ولم أجد فى مراثيهن من الحكمة إلا قليلا جداً » كما « تمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع » « وقصائدهن مقطعات فليست لإحداهن مطولة ، وأطول قصائد الخنساء — وهى زعيمتهن فى طول القصائد — أبياتها خمسة وثلاثون ، على حين تكثر المطولات فى شعر الرجال . وربما كان مبعث هذا القصر تعاطى الموضوع الواحد ، وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن تنفس حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر. » وهو فى هذا كله لا يخرج عن رأى المعلم بطرس البستانى ، وإن توسع فى تعميم هذه السمات على شعر الإناث ، والتمس لها أسباباً من طبيعة الأنثى وبيئة المجتمع العربى .

وهذه المآخذ النقدية موضع نظر :

فالقول بأن مراثى الخنساء — والنساء بعامة — خالية أو تكاد من شعر الحكمة ، لم يؤيَّد باستقراء دقيق ولا بإحصاء رقمى ، فالمعلم بطرس البستانى اكتفى بالإشارة إلى لبيد ، والدكتور الحوفى ، نقل أربعة أبيات لأبى ذؤيب ، وبيتاً لكل من : أبى زبيد والغنوى فى رثاء إخوتهم ، مقابلة بأبيات سبعة

---

(١) « أدباء العرب » ١٩٠ الطبعة الخامسة ، بيروت .

(٢) « المرأة فى الشعر الجاهلى » : صفحات ٤٩٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ .

لثلاث شواعر ، فى رثاء إخوتهن كذلك[١] ، ومنها بيت واحد للخنساء .

ولا أرد عليه هنا بأن ما استشهد به من أبيات الحكمة فى المراثى ، لا يسند رأيه بحال ، كما لا أرد عليه بعرض حِكَم الخنساء — وليست قليلة — بل يكفينى أن أقول إن « الحكمة » ليست شرطاً فى الشاعرية بعامة ، ولا هى من مقوّمات المرثية بخاصة . وقد ضاق شيوخ النقاد— فيما ذكر ابن خلدون[٢] — بشعر المتنبى وأبى العلاء وابن خفاجة لازدحامه بالمعانى والحكم ، كما ضاق النقاد من قبل بأبى تمام لمثل هذا أو ما يشبهه [٣] وفى عصرنا هذا سمعنا من يأخذ على « شوقى » أنه إذا رثا ترك الميت وتحدث عن الموت ، وأرانا هنا أمام نقاد يعيبون على الخنساء افتقار مراثيها إلى الحكم والتحدث عن الموت !

ولم نسمع عن علماء الشعر المتقدمين أنهم أدخلوا الحكمة فى وزن المرثية ، بل الذى قاله المبرد ،وقدامة بن جعفر : إن أجود الرثاء ما جمع إلى التفجع على المرثى تعداد مناقبه ومدح مآثره .

وطول القصيدة وإن دخل فى اعتبار كثير ، ومنهم ابن سلام الذى وضع الكثرة وطول النفس موضع التقدير فى وزن الشعراء[٤] إلا أننا نراهم — فى الغالب الأعم — يقدمون شاعراً على آخر ببيت واحد قاله ، بل جاوزوا ذلك فحكموا بأن فلاناً أشعر الناس لأنه قال كذا ، ، وهذا شاهد على أنهم لم يروا فى « الحكمة » مقياس الجودة ، وإنما قاسوا « بالكيف » .

---

(١) مما يلفت نظر الدارس هنا ، أن مراثى متمم ، ولبيد ، وأبى ذؤيب ، فى الإخوة وليس فى أب أو أم أو زوجة أو ولد ، وكذلك الشأن فى أكثر مراثى الشواعر التى جمعت فى « أنيس الجلساء » وإنها لظاهرة تحتاج إلى من يفرغ لها فى بحث متخصص ، يستقرئ شعر الرثاء ليحصى نصيب الإخوة فيه ، ثم يستبين فيها ما يفسر هذه الظاهرة على ضوء ما نعرف من بيئة القوم ومجتمع القبيلة . ولى فى هذا محاولة ، عرضتها خلال دراسة « للمرثية الجاهلية » ونشرت فى العدد الثالث من حولية كلية البنات ، بجامعة عين شمس .

(٢) المقدمة ص٥٧٣ ط التجارية .

(٣) « رسالة الغفران » ص٣١٦ ط ثانية تحقيق بنت الشاطىء ، وانظر « الموازنة » للآمدى .

(٤) طبقات الشعراء ، فى مواضع متفرقة

ب : لعل القارئ قد لمح خلال عرضى لمآخذ القدامى والمحدثين على شعر الخنساء، أننى لست ممن يدخلون فى حسابهم عند وزن الشاعرة، طول القصيدة أو قصرها ، وكثرة الحكم فى شعرها أو ضآلة حظه منها . والحق أن هذه الموازين النقدية لم تعد فيما أرى جديرة بالاعتبار ، فى عصرنا المفتون بفنية الشعر وإنسانية الفن . ، المعتد بالعمق أكثر من اعتداده بالطول والعرض .

وليس معنى هذا أننى أضع شعر «الخنساء» بمنأى عن النقد، أو أنجو لها به خالصاً من المآخذ والعيوب ، وإنما معناه أنى أحاول أن أعرض شاعرية الخنساء على مقاييس نقدية جديدة ، فأقرأ ديوانها قراءة لا تعنى بالكم والشكل قدر ما تعنى بالجانب الفنى والإنسانى فيه .

وأجرؤ على أن أدعى أنها محاولة جديدة ، فمبلغ علمى عن الذين كتبوا فى نقد الخنساء أنهم لم يخرجوا فى تقويم شعرها عن تلك المقاييس الشكلية من قلة الحكم ، وقصر القصائد ، والتكرار، والغلو — ولا أراها تتصل بجوهر الشاعرية أو تلائم روح العصر .

وفى محاولتى هذه ،أصغى إلى مراثى الخنساء ، فأجدها فى عدد غير قليل من المراثى المتأخرة قد التفتت إلى الجانب المادى واحتفلت به ، فهى إذ تبكى أخاها ، تعدد ما نالها من بره ورفده وعطائه ، وتشكو أكثر ما تشكو خسارتها المادية الفادحة ، فى الجواد الكريم المعطاء ، فإذا تجاوزت هذا النطاق من خسارتها الفردية ، فإنما تتجاوزه لتصف مصاب القبيلة فى فتاها الكريم البطل ، مأوى اليتامى والأرامل ، وحامى الحمى والذمار .

وقلما بكت الخنساء فى متأخر مراثيها لصخر ، صنو نفسها وعديل روحها ، أو وقفت بعده بالأطلال تسأل عن ملعب صباهما المشترك وملهى طفولتهما معاً

قلما ساءلت الزمان عن أنس الأخوة ، وجمال الصحبة فى الأيام الخوالى ، أو افتقدت فى شيخوختها الحزينة ذكريات ماضٍ لهما عزيز ، ولى وراح . . .

ولطالما ألم بها طيف أخيها الراحل ، فاستثار فيها شقوة الحرمان من عطائه وحمايته ، ولكن قلما عناها وهى تناجيه بمواجعها ، أن تطوف به فى دنياهما

الواحدة ، وتصحبه إلى معالم ماضيهما ، أو تشكو ما تجد من لوعة لفقد رفيق المهد وزميل الصبا .

وبدت ، أو شاء لها مؤرخوها أن تبدو ، كما لو لم يروعها سوى الخسارة المادية ، أما المحنة النفسية بموت الأخ ، أما المصاب الروحى بتصدع شطر من كيانها ، أما الجرح القلبي بتمزق الشمل المؤتلف وبعثرة الجمع الملتئم ، فلم يظهر بوضوح فى شعر الراثية المفجوعة ، بل كاد يتوه فى ضجيج التأبين لسيد العشيرة .

تسألها أم المؤمنين «عائشة» عما روعها من فقد صخر، فتحكى لها حكاية التجائها إليه حين أتلف زوجها ماله ، فأعطاها صخر شطر ماله ، وعاودت سؤاله مرة ثانية ، وثالثة ورابعة ، وهو فى كل مرة يعطيها خير الشطرين ، حتى إذا لامته امرأته ، أبى أن يستجيب ، مقسماً ألا يعطى أخته شر ماله ، وهى حصان قد كفته عارها ، ولو مات لمزقت خمارها وجعلت من شعر صدارها .

هى الخسارة المادية إذن ، روعت الخنساء !

وفيها نلتمس ما قد يعين على كشف موقفها الشاذ من فلذات كبدها ، حين لم ترثهم ببيت من الشعر ، وقد ملأت الدنيا نواحاً على من أعطاها شطر ماله . وهى الثغرة التى يمكن أن ينفذ منها الناقد ليعيد النظر فى ذلك المجد الأدبى الذى ظل على القرون شامخاً .

ولا مجال لأن ننكر على « الخنساء » طول الحديث عن مصاب القبيلة فى « صخر » ، فمثل هذا شاهد على أنها كانت فى كثير من مراثيها ، تصدر عن ذاتية جماعية ، لا عن ذاتية فردية . وهو ملحظ نقدره حق قدره ، فى التراث الفنى لشعراء القبائل ، الناطقين بلسان الجماعة ، الممثلين لوجدانها العام . لكن « الخنساء » بوصفها شاعرة أنثى ، كانت مرجوة لأن تكشف بوضوح عن الذاتية الخاصة ، فى فجيعتها فى صخر ، ولو بالقدر الذى نرى فيه ذاتيتها الجماعية ، حين تؤبن فقيدها ، وتبكى فيه موئل الأرامل واليتامى ، ومغيث الملهوف ومطعم الجار ، وحامى الذمار .

وإذا كنا لا نفتقد فى المرثية الجاهلية بوجه عام ، صدى المشاعر الذاتية للراثى ، فمراثى الشواعر بوجه خاص أولى بأن تعكس هذا الصدى بعمق واضح مثير .

لكن يبدو أن جامعى المختار من شعر الرثاء ، اتجهوا إلى إيثار ما يعبر منه عن الخسارة المادية فى الفقيد ، متأثرين فى ذلك بروح العصر والبيئة . ولا يخطئنا مع هذا ، أن نعثر بين حين وآخر ، على نفثات حارة فى المروى من مراثى الشواعر ، تعبر عن قلب جريح ، وحزن نافذ إلى أعماق الوجدان . وألفت بوجه خاص إلى :

مرثيتى « ليلى بنت سلمة » فى أخيها :

أقول لنفسى ، فى خفاء ألومها لك الويلُ ، ما هذا التجلُّدوالصبرُ
وكنت أرى بيناً به بعضَ ليلة فكيف ببَيْن دون ميعاده الحشر
وهوّن وجدى أننى سوف أغتدى على إثره يوما ، وإن طال بى العمر (١)

* * *

نعاه لنا الناعى فلم نلقَ عبرةً بلى حسرةً تبيضُّ منها الغدائر
كأنى غداةَ استعلنوا بنعِّيه على النعش، يهفو بين جنبىَّ طائر (٢)

وقول « زينب بنت الطثرية » فى رثاء أخيها يزيد :

أرى الأثْلَ من بطن العقيق مجاورى مقيما ، وقد غالت « يزيدَ » غوائلُه
وكنتَ أعير الدمعَ قبلك من بكى وأنتَ على من مات بعدكَ شاغله (٣)

ومرثية « قتيلة بنت النضر القرشية » لأخيها الذى أسر ببدر كافرًا ، وضربت عنقه صبراً . وهى مروية فى أخبار غزوة بدر بكتب التاريخ والسيرة ، وفى المختار من مراثى النساء بحماسة البحترى وغيرها من كتب الأدب .

وللخنساء نصيبها من هذا الشعر المعبر عن ذاتيتها الخاصة ، الكاشف عن شجنها المر العميق ، وأكثر ما نجده فى المراثى التى قالتها فى صخر والحزن عليه

(١ ، ٢) حماسة البحترى ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(٣) حماسة البحترى : ٤٣٣ . وانظر معها مرثية « طيبة الباهلية » لأخيها ، فى حماسة البحترى : ٤٣١

جديد ، والمناحة قائمة ، وسوف نعرض له بعد بمزيد بيان .

وإنما غلبت عليه مراثٍ كثار ، بكت فيها الخسارة فى صخر ، حيث نفتقد فيها غالباً ملامح العالم النفسى الخاص لشاعرة فجعت فى أخ حبيب . كما تغيب تماماً ، أشجان أم شاعرة ثكلت بنيها الأربعة فى يوم واحد .

وأعود فأقول للمرة الثانية : من يدرى ! لعله الظل الكابى الذى يُلقى على صورة « الخنساء » لا كما كانت فى الواقع وحقيقة الأمر ، ولكن كما أراد رواة أدبنا ومؤرخوه أن يرسموها .

الفصل الرابع

مختارات من شعر الخنساء

١ ـ العناية بديوانها ، وسلامته نسبياً من الوضع

٢ ـ الترتيب الزمني لشعرها

الدور الأول : قبل فجيعتها فى أخويها

الدور الثانى : من مصرع معاوية إلى موت صخر

الدور الثالث : ما بعد وفاة صخر

٣ ـ سمات مراثى الخنساء

٤ ـ الميراث الشعرى .

الفصل الرابع

١ ـ سلامة ديوان الخنساء

فى حديثنا عن « عصر الخنساء » عرضنا لقضية الشك فى الشعر الجاهلى بعامة ، على قدر ما اتسع له المجال المحدود فى بحث كهذا لم نقصد به إلى التفرغ لدراسة دعوى الانتحال ، وإنما هى إلمامة يسيرة أحوجنا إليها درسُنا لشاعرة من العصر الجاهلى .

وإذا ما تركنا هذه القضية العامة جانباً ، فإن نصيب الخنساء من اتهام شعرها ـ بخاصّة ـ قليل لا يعدو الأبياتَ تنسب إليها خطأ ، أو يُشك فى أن تكون لراثية سواها .

ذلك أن إدراكها الإسلام وهى ذائعة الشهرة بعيدة الصيت ، قد جعل شعرها يتردد على ألسنة الرواة إلى قريب من عصر التدوين . وكان السُّلَميون يعتزون بها ويباهون بالموروث من مجدها الأدبى ، وقد أدرك ابن أختها « أشجع السلمى » القرن الثانى للهجرة فكان مرجعا للمحفوظ من شعرها ، ولذلك جُمع فى عصر مبكر ، وشرحه عدد من مشهورى العلماء كابن السكّيت وابن الأعرابى والثعالبى ، وحفظت شروحهم مع نسختين للديوان كتبهما العاصمى والكرمانى فى الربع الأول من القرن الثالث الهجرى ، وجمعا معاً سنة ٦٢٠ هـ فى نسخة خطية ، اقتنتها دار الكتب المصرية . وهى النسخة التى اتخذت أصلا « لأنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء » الذى نشره الآباء اليسوعيون فى بيروت ١٨٨٨ ، وطبع مرة أخرى بعناية الأب لويس شيخو ١٨٩٥ ـ وعليها اعتمد « دى كوبييه » فى الترجمة الفرنسية التى نشرت فى بيروت سنة ١٨٨٩ ، كما اتخذها « كرنكوف » مرجعاً عند ما كتب مادة « الخنساء » فى دائرة المعارف الإسلامية .

وتوجد نسخ خطية من « ديوان الخنساء » فى مكتبات : برلين ، وليدن ، وبطرسبرج ، تجد أرقامها فى (بروكلمان ١ / ١٦٥) .

* * *

وقد اطمأن « كرنكوف » قبلنا إلى سلامة شعر الخنساء نسبيًّا من عبث النحل ، وذكر من أسباب ذلك أن ديوانها روى فى زمن مبكر ، عن رجال من قبيلتها ، فضلا عن طابع العصر الذى لا نخطئه فى شعرها . قال :

« ومن الطبيعي أن نجد قصائد كثيرة نُحلت للخنساء لاستفاضة شهرتها بإجادة الرثاء . ومع ذلك فلسنا نشك فى أصالة قصائد أخرى ، وبخاصة لأن القصائد التى لا شبهة فى نسبتها إليها ، رويت عن رجال من قبيلتها وجمعت منهم فى زمن جِدّ مبكر . ومما له دلالته أننا نجد فى القصائد غير المنحولة ، التعبير عن المشاعر الصادقة للجاهلية »[١] .

وهى بعينها الأسباب التى ذكرها « الأستاذ فؤاد أفرام البستانى » فى مقدمة « الروائع » دون إشارة إلى الدائرة .

قال بعد الحديث عما لم يسلم منه ديوان الخنساء من الدخيل :

« بيد أن ديوانها على عِلاّته ، يظهر من أسلم الشعر الجاهلى من النحل وأقربه إلى الصحة ، لما عرفنا من اعتناء بنى سليم به من عهد بعيد ، ومن استناد جامعيه إلى أهل الخنساء أنفسهم . أضف إلى ذلك الصفات الجاهلية البارزة فى أكثر قصائدها ، والدالة على جاهلية شعرها »[٢] .

وقد أستطيع أن أضيف إلى هذا فى تعليل سلامة الديوان ، أن « الخنساء » لم يكن لها دور معروف فى معترك الأحزاب السياسية ، ولا كان لها اتصال واضح بصراع الأهواء الدينية والمذهبية التى تُذكر أولَ ما تذكر دواعى الانتحال ، ومن هنا ظل شعرها بمنجاة عن العبث والاتهام ، على قدر ما تحتمله ظروف البيئة والرواية النقلية .

---

(١) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة : الخنساء .

(٢) « الروائع » العدد ٣٨ المقدمة ص : ك .

٢ — الترتيب الزمنى لشعر الخنساء

وقصائد الخنساء ، فى النسخ المطبوعة من ديوانها ، مرتبة على حسب حروف الهجاء للقوافى ، وهو ترتيب إن سهّل الرجوع إلى الديوان ، فهو لا يعين بحال ما على دراسة شعر الخنساء ، والانتفاع به فى فهم شخصيتها وتقويم شاعريتها .

والأستاذ « فؤاد أفرام البستانى » رتب مختاراته بحسب الأشخاص الذين قيلت فيهم القصائد ، فبدأ بأربع مراث للخنساء فى شقيقها معاوية ، ثم أتبعها بمختارات من مراثيها فى صخر دون إشارة إلى الترتيب الزمنى ، ثم جعل القسم الثالث لقصائد شتّى : وصف أبيها ، رثاء زوجها مرداس ، قصيدة فى التشكّى والفخر بقومها .

وسأحاول هنا ، فى عرضنا للنماذج المختارة من شعرها ، أن آتى بها مرتبة ترتيبًا زمنيا قدر المستطاع ، وهو ما أغفله جامعو الديوان وناشروه ، على ماله من أهمية وخطر .

* * *

وليس لدينا مع الأسف ، من الوسائل ما يعين على هذا التحديد الزمنى فى الديوان كله ، وإنما أقصى جهدنا أن نستقرئ أخبار الخنساء وشعرها معًا ، التماسًا لشعاع من الضوء يهدى إلى زمن القصيدة على وجه التقريب ، فنظفر بهذا الشعاع الهادى مرة ، ونفتقده مرات . لكن قصور المحاولة لا يحول دون الاجتهاد فيها ، تاركين لمن بعدنا إتمامها بما يُرجى أن يكشف عنه الغد من جديد فى هذا الميدان .

ولا ينتظرْ قارئٌ منى أن أحدد للقصيدة تاريخًا بعينه ، فذلك مالا أجرؤ عليه ولا أستطيعه ، وإنّما تتجه محاولتى إلى ترتيب القصائد المختارة ، بحسب

ما أطمئن إلى كونها قيلت فى وقت مبكر أو متأخر من حياة الخنساء .

وإذ كان موت صخر هو الحدث البارز فى حياة الشاعرة كما قال « ابن سلام » ومن تبعه من مؤرخى الأدب العربى ، فإنى أوثر ضبطاً للتحديد الزمنى الذى تتجه إليه محاولتى ، أن أدير التقسيم فى نطاق مرن ، تتميز فيه ثلاثة أدوار من حياة الخنساء :

الدور الأول : شعرها منذ ظهرت فى الأفق الأدبى ، إلى مصرع شقيقها معاوية .

والثانى : من هذا المصرع ، إلى موت صخر .

والثالث : ما بعد وفاة صخر .

* * *

الدور الأول :

ونختار منه خمس قصائد :

الأولى : عند ما خطبها « دريد بن الصمة » فردّته .

وهى مقطوعة قصيرة ، عدد أبياتها فى (الديوان) ستة[1] ، وقد جاء منها صاحب (الأغانى)[2] بأبيات ثلاثة فقط :

أتخطبنى –هُبلتَ– على «دريد»	وقد أطردتَ سيدَ آل بدرِ ؟
معاذ الله ينكحُنى حَبَرْكى	يقال أبوهُ من جُشَمَ بْن بكرِ
ولو أمسيتُ فى جُشَمٍ هَدِيًّا	لقد أمسيتُ فى دنس وفقـرِ

وليس فى الأبيات ما يلفت ، إلا أن تكون على قصرها شاهدة بموهبة مواتية فى فجر الشباب ، وهى بعد تلقى ضوءاً على شخصية الفتاة ، بهذا الأسلوب الذى تخاطب به أباها – أو أخاها – فى ردّ خاطب لا ترضاه ، كما يشير البيت الأول ، إلى أن « تماضر » قد خُطبت قبل ذلك لسيد آل بدر .

---

(١) « أنيس الجلساء » ص ٤٤ . وبين روايتها ورواية الأغانى خلاف يسير .

(٢) « الأغانى » ١٠ / ٢١ — دارالكتب . وأطردت : أمرت بطرده . والحبركى ، بفتحتين فسكون : الضعيف الرجلين كأنه مقعد لضعفهما ، والطويل الظهر القصير الرجلين ، والهدى : العروس .

والقصيدة الثانية ، رائية قالتها مفاخرة بأخيها الشقيق « معاوية » ، وإنما رجحنا وضعها فى هذا الدور المبكر ، لأنها لا تحمل أثرًا لنعى ، ولا تشير إلى مصرع الأخ ، وإنما تشيد ببأسه فى الحرب . فضلا عن دلالتها الصريحة ، على غضبة الخنساء لتجاهل القوم أخاها ، وما كانت لتغضب أو تلوم ، لو أنه كان إذ ذاك راقدًا تحت الثرى .

ويبدو أن حادثًا ما ألمّ ببعض القوم ، فدعوا له شخصًا اسمه « عامر » ولم يدعوا « معاوية » ، فقالت أخته لائمة مفاخرة :

دعوتُمْ « عامرًا » فنبذتموهُ ... ولم تَدْعوا « معاويةَ بْنَ عمرو »

ولو ناديْتَهُ لأتاكَ يسعَى ... حثيثَ الركضِ أو لأتاك يجرى

مُدِلاًّ حين تشتجِرُ العَوالى ... ويدركُ وِتْرَهُ فى كل وتْرِ

والقصيدة فيما نرى ، ليست تجربة مبتدئة لشاعرة لم تقل قبل موت صخر إلا البيت أو البيتين .

وقصيدة ثالثة ، بائية من بحر الطويل ، نرجح أنها قيلت فى هذا الدور ، إذ لا يبدو أنها رثائية ، وإنما هى حماسية مادحة ، يلفتنا فيها إلى جانب فخامة العبارة وجزالة اللفظ ، حيوية الحركة ، وبراعة التصوير لبعض مشاهد البادية ، وكثرة الالتفات الدال على تمكن واقتدار :

وخرقٍ كأنضاءِ القميص دويَّةٍ ... مخوفٍ رَدَاه ، ما يقيم به ركبُ[(1)]

قطعتَ بمِجْذام الرَّواح كأنَّها ... إذا حُطَّ عنها كُورُها ، جَمَلٌ صَعْبُ[(2)]

يعاتبُها فى بعض ما أذنبَتْ له ... فيضربُها حينًا ، وليس لها ذنبُ

وقد جعلتْ فى نفسها أن تخافَهُ ... وليس لها منهُ سلامٌ ولا حربُ

فطرتَ بها حتى إذا اشتدَّ ظِمؤها ... وحُبَّ إلى القوم الإناخةُ والشُّرْبُ

أنختَ إلى مظلومة غيرِ مُسْكنٍ ... حواملُها عوجٌ وأفنانُها رَطْبُ[(3)]

---

(١) الدوية : القفر .

(٢) المجذام : المقطاع ، أى الناقة السريعة التى تقطع الفيافى .

(٣) المظلومة : هنا بمعنى الشجرة . حواملها : عيدانها .

فناط إليها سيفَه ورِداءه وجاء إلى أفياءِ ماعلَّق الركبُ
فأغفَى قليلاً ، ثم طار برحلها ليكسب مجداً أو يجوز لها نَهبُ
فثارت تبارِى أعْوجِيا مُصدَّراً طويلَ عِذار الخدّ جؤجؤه رحبُ(١)

والرابعة : رائيتها(٢) فى وصف سباق بين أبيها عمرو وأخيها صخر ، قيلت ولا ريب قبل أن تُمتحن الأسرة بفقد زين شبابها .

ويروون فى سبب نظمها ، أن الخنساء قيل لها يوماً وهى تملأ عينيها من أبيها وأخيها : لئن مدحتِ أخاك فقد هجوتِ أباك ، فانبعثت تقول :

جارَى أباهُ فأقبلا وهُما يتعاوَرانِ مُلاءةَ الفَخْرِ
حتى إذا نَزَتِ القلوبُ وقد لزّتْ هناك العذر بالعذرِ(٣)
وعلا هُتافُ الناس : أيهما ؟ قال المجيب هناك : لا أدرى !
برزتْ صحيفةُ وجهِ والدهِ ومضى على غُلَوائه يجرِى
أوْلَى فأولى أن يساوِيَه لولا جلالُ السنّ والكبْرِ !
وهما كأنهما وقد برزا صقْرانِ قد حَطّا على وَكْرِ !

والقصيدة رائعة ، تتدفق حيوية ، وتصور مشهدَ السباق تصويراً بالغ الدقّة والجمال ، وتسجّل الحركة ، واللفتة ، والوثبة ، والصيحة ، كما تسجل الانفعال النفسى لمتتبع السباق وهو لا يدرى أى الرجلين يسبق صاحبه . ولا يهون على ناقد أن يعد هذه الرائعة ، تجربة مبتدأة ، وفيها هذا كله ، وفيها معه ، هذا التلاؤم بين الوزن — بحر الكامل — ونغم القافية ، وبين حركة الجرى والركض فى السباق ، وفيها كذلك ، تلك البراعة اللبقة ، فى التخلص من المأزق الحرج ، إذ السباق بين أبى الشاعرة وأخيها ، وهى بكليهما معتزة مباهية.

---

(١) الأعوجى : نسبة إلى أعوج وهو فحل كان لكندة فصار إلى بنى سليم فإلى بنى هلال ثم تفرق نسله فى العرب . والجؤجؤ : اللبة .

(٢) «أنيس الجلساء» : ٤٣ .

(٣) لزت : التصقت . والعذر جمع عذار وهو ما انحدر من اللجام على وجه الفرس . والتصاق العذر ، فى مثل هذا الموقف ، يكون عن محاذاة الفارسين وتقاربهما فى السباق .

ومن عجب أن القصيدة على روعتها وقلة نظائرها فى ديوان الشعر العربى بعامة ، لم تلفت أنظارَ الدارسين فى عصرنا ، على أنها ظفرت من الأقدمين بشهادة ما أظن أن قصيدة أخرى لها ظفرت بمثلها ، إذ يروون أن « أبا عبيدة » سئل عنها : لمَ لمْ ترو فى المجموع من شعر الخنساء . فأجاب : العامةُ أسقطُ من أن يجاد عليها بمثل ذلك !

أما المحدثون فما عناهم إلا آن يشيروا إلى ما ذكر الرواة والنقاد من أخذ الشعراء لهذا المعنى أو ذاك من قصيدة الخنساء ، وقد أشار « أنيس الجلساء » إلى كل هذا ، نقلا عن « الأصمعى » فيما أرجح (١)

فلنذكر هذا حين يُهدر الاعتراف بشاعرية الخنساء قبل وفاة « صخر » ويُحصر مجالها الفنى فى الرثاء وحده .

وثمت قصيدة خامسة مختارة من هذا الدور المبكر ، قالتها « الخنساء » فى رثاء زوجها «مرداس السلمى»(٢) ورجحنا أن يكون ذلك قبل فجيعتها المزدوجة بفقد أخويها ، على ما أشرنا إليه فى حديثنا عن حياة تماضر :

ولما رأيتُ البدرَ أظلم كاسفًا	أرنّ شواذٌ بطنُه وسوائلُه(٣)
رنينًا وما يغنى الرنينُ وقد أتى	بموتك من نحو القُرَيَّة حاملُه(٤)
وفضّل «مرداسًا» على الناس حلمُه	وأنْ كل همٍّ همَّه فهْوَ فاعلُه
وأنْ كل واد يكره الناسُ هبطه	هبطتَ وماء منهل أنت ناهلُه
تركتَ به ليلاً طويلاً ومنزلاً	تَعادى على ظهر الطريق عواملُه
متى ما توازنُ عاجدًا تعتدلْ به	كما عدَل الميزانَ بالكف راطلُه(٥)

وتبدو فى هذه القصيدة ، ملامحُ مبكرة من مراثى « الخنساء » التى سوف

---

(١) فى كتاب « فحولة الشعراء » ص ٦٢ ط المنيرية . وانظر (المرأة فى الشعر الجاهلى) ص ٥١٢ .

(٢) « أنيس الجلساء » : ٧٧ .

(٣) ويروى : شوان — وهو جبل قرب مكة .

(٤) القرية : من أشهر قرى اليمامة . ويروى : « بنعشك » بدلا من « بموتك » .

(٥) ويروى : ثاقلة ، أى وازنه .

تلقانا بعد . ومنها نستجلي شعاعاً من الضوء ، نعرف به الجانب المهدَر من حياة تماضر ، وأعني به ما ليس متصلا بأخيها صخر .

فلعلنا لا ننسى هذا حين نذكر قولة الأقدمين : « وكانت تقول البيت والبيتين حتى مات شقيقها معاوية ثم أخوها صخر »[١] .

الدور الثاني :

ويمكن أن نضع هنا مراثيها في شقيقها « معاوية » وحده ، وما يتصل به من حضٍّ على الثأر له ، ومدح فيمن أعان على هذا الثأر . وإذا كنا لا نستبعد أن يكون بعض مراثي الخنساء في « معاوية » قد قيلت متأخرة ، إلا أن هذا الاحتمال يضعفه ما نعلم من أن مصاب الخنساء في « صخر » قد ألهاها عمن سواه ، وبخاصة إذا قدرنا أن ما في ديوان «الخنساء» من شعر يمكن أن يضاف إلى هذا الدور ، خاص بمعاوية وحده قاصر عليه ، وهذا القصر يغرينا بأن ندمجه في نطاق واحد ، حتى ولو كان بعضه قد قيل متأخراً .

ولسائل أن يسأل : لم أفردنا هذا الشعر بدور خاصّ ، ولم نضفه إلى ما قبله أو إلى ما تلاه . وجوابنا عن هذا السؤال، أن « الخنساء » بدَأت في هذه الفترة بالذات ، تتخصص في الرثاء، وتتميز بسمات خاصة يحسن أن نتبينها هنا قبل أن نمضي إلى ما نسميه « الدور الصخري » الذي استأثر بعناية الأقدمين حتى حصروا أو كادوا يحصرون فيه حياة « تماضر » وشعر « الخنساء » .

وفي الديوان من شعر هذا الدور أربع قصائد لم يختلف الرواة في كونها قيلت في « معاوية » ، وقصيدتان أخريان قالوا عن إحداهما إنها في « صخر » أو في « معاوية » ، وقالوا عن الثانية إنها في «صخر» على حين رجحنا أنهما في معاوية — بشاهدٍ من النص نفسه سوف نشير إليه قريباً .

وقصيدة سابعة كذلك ، نميل إلى عدها من مراثي « معاوية » ، وإن كان اسم « صخر » فيها . وأخرى لم يشر الديوان إلى اسم من قيلت فيه ، ورجحنا أن

---

(١) الاستيعاب : ١٨٢٧/٤

تكون فى « معاوية » بشهادة النص . ومرثية بائية ، ذكر « البحترى » أنها فى معاوية[١] .

ويضاف إلى هذه جميعًا أبيات ثلاثة قالتها فى مدح « قيس بن الأمرار الجشمى » ، حين صرع قاتل أخيها الشقيق .

ونحاول ترتيب قصائد هذا الدور زمنيًّا ، فنبدأ بقصيدة[٢] لها لامية من المتقارب ، يبدو أنها قالتها حين بلغها مقتل « معاوية » . وهذه القصيدة هى التى اختلفوا فيها : أهى فى معاوية أم فى صخر ؟ ورجحنا القول الأول[٣] لقولها فى أحد أبياتها : * فإن تك « مُرّة » أودت به *

وذلك هو معاوية ، الذى قتله « هاشم بن حرملة المرّى » . ثم أيد هذا الترجيحَ عندنا ، أنها تتحدث فى بعض أبياتها عن « الصبر وما فيه من سرور » حديث مؤمِّلة فيه بل ساعية إليه ، وما عهدنا « الخنساء » فى مراثيها لصخر تلتمس عزاء أو تبغى صبرًا .

ولعل الذين ذهبوا إلى أن هذه القصيدة قيلت فى « صخر » ، تأثروا بما فيها من حزن صادق لايهتم بمن يهلك بعده ، وتمجيد حارٍّ لبطولة الفقيد ، وهذان مما يستأثر به « صخر » عادة ، لكنا نميل إلى القول بأن « الخنساء » كانت منفعلة هنا بفجيعتها الأولى فى شقيقها ، وقد بكته فارسًا شهمًا ، وخيل إليها فى غمرة أساها أنها لن تأسى على هالك بعده ، ولن تسأل باكية : مالها ؟ لكن الأيام أخلفت ظنها ، وسخرت بقَسَمِها ، وجعلتها تبكى على هالك بعد معاوية . . .

---

(١) الحماسة : ٤٢٨

(٢) أنيس الجلساء : ٧٢

(٣) الأغانى : ١٣/١٣١ ساسى . وقد أراد مؤلف (الخنساء فى مرآة عصرها) أن يبطل استنتاجنا هذا ، ليجعل القصيدة من مراثيها فى صخر ، وملأ صفحات فى تبرئة « ربيعة الفقعسى الأسدى» من دم صخر ، مؤكداً أن قاتليه حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريان . ولا نقول فى ذلك إلا ما قاله ابن حزم فى (جمهرة أنساب العرب ١٨٥) : « ومن بنى فقعس ، ربيعة بن ثعلبة — ويكنى أبا ثور قاتل صخر بن عمرو السلمى » .

وأبيات القصيدة ، واحد وثلاثون بيتاً ، وهى تعد بذلك من طويلات الخنساء ، ولعلها أطول قصيدة قالتها حتى ذاك العهد .

والقصيدة قوية ، فيها الجزع الصادق الذى تشعر معه بأن الكون قد أظلم والكواكب قد أفلَتْ ، وفيها كذلك بوادر الطابع الذى سوف يغلب على « الخنساء » فى مراثيها بعد ، وهو استهلال المرثية بالبكاء ، ثم الالتفات السريع من البكاء والحزن ، إلى الإشادة بمناقب الفقيد :

ألا ما لعينِكِ أمْ ما لَها ... لقد أخْضَلَ الدمعَ سِرْبالَها !

أبَعْدَ «ابْنِ عمرو» من آل الشريـ ... ـد حلَّتْ به الأرضُ أثقالَها ؟

فآليت آسى على هالكٍ ... وأسألُ باكيةً ، ما لَها ؟

. . . .

سأحمل نفسى على آلة ... فإمَّا عليها وإمَّا لَها

فإن تصبر النفسُ تلق السرورَ ... وإن تجزع النفسُ أشقى لَها

نهين النفوسَ وهوْن النفو ... سِ يوم الكريهة أبْقَى لها

ونعلم أنّ منايا الرجا ... ل بالغةٌ حيث يحلى لها

لتجْرِ المنيَّة بعد الفتى م ... المغادَرِ بالمَحْو أذيالَها (١)

فإن تلك « مُرَّةُ » أودت به ... فقد كان يُكثِر تَقْتالَها

فخرَّ الشوامخ من قتله ... وزلزلت الأرضُ زلزالَها

وثانية القصائد : سينية لها مقيدة من مجزوء الكامل ، أبياتها اثنا عشر ، جاءت فى الديوان رثاءً لصخر ، لكننا رجحنا — بشاهد من النص كذلك — أنها فى رثاء « معاوية » إذ تقول عنه « ابن أمّى » وذاك هو معاوية الشقيق ، أما « صخر » فأخوها لأب . (٢)

---

(١) المحو : موضع . انظره مع الشاهد فى (بلدان ياقوت ٧ / ٤٠٠) ط السعادة بالقاهرة

(٢) الاستيعاب : ١٨٢٧/٤ — وفى كتاب (الخنساء فى مرآة عصرها — ص ٢٣٣) مناقشة لما كتبت هنا ، يرى فيها المؤلف أن صخرا أخ شقيق ، دون أن يتفضل فيشير إلى مرجع ينقض هذا الذائع المشهور . وعنده أن ترجيحنا رثاءها لمعاوية ، بالقصائد التى فيها : ابن أمى ، يرد عليه أن كون صخر أخاها لأبيها يفتقر إلى دليل ! وأنها فى مراثيها لصخر تقول : لهف أمى . . . ونقول : لا نملك دليلا إلا أن نشك مصادر مادتنا . وفرق عندنا بعيد ، بين «ابن أمى» . و «لهف أمى» ! !

وتستهل القصيدة بحث العين على البكاء ، وهى كما سنرى سمة سوف تغلب على مراثيها . ثم تنتقل مسرعة ، بعد بيت واحد ، بل بعد شطر واحد أحيانا ، إلى وصف الليث المهاب ، غيث العشيرة وحامى الكتيبة :

يا عين ابكِى فارساً حَسَنَ الطِّعانِ على الفَرَسْ
ذا مِرةٍ وَمَهابةٍ بَيْنا نؤمِّلُه اخْتُلِسْ

. . . .

نِعْمَ الفتى عند الوغى حين التَّصايُح فى الغَلَسْ
فلأبكينّك سيّداً فَصلَ الخطابَ إذا الْتَبَسْ
من ذا يقومُ مقامَهُ بعد ابْن أمى إذْ رُمِسْ
غيث العشيرةِ كلِّها : ألْغائرينَ ومن جَلَسْ(١)

وثمتَ قصيدة رائية ، أبياتها خمسة وعشرون ، من البسيط ، تبدأ بذكر « صخر » ، لكنا نميل إلى عدّها من مراثى الخنساء فى شقيقها « معاوية » لقتولها : ابن أمى . وغير مستبعد عندنا أن يكون البيت الأول منها قد أضيف إليها عن خطأ أو تزيد ، وإذ ذكرتْ فيه الخنساء اسم « صخر » فقد عدّ الرواة القصيدة من مراثيها فيه مع أنهم الذين قرروا أن صخراً ليس ابن أمها . ثم إنها ترثى هنا قتيلا فى معركة قد تخلّى عنه فيها من معه ، وذلك هو « معاوية » .

والقصيدة تعبر عن حزن مر ، وتحض على الثأر للقتيل :

يا عينُ فيضى بدمعٍ منك مِغْزارِ وابْكى لصخر بدمع منك مِدْرارِ
إنى أرقتُ فبت الليلَ ساهرةً كأنما كحلتْ عينى بعُوّار
أرْعَى النّجومَ وما كُلِّفْتُ رِعْيَتَها وتارةً أتغشَّى فَضْلَ أطمارى (٢)
وقد سمعت فلم أبهجْ به خَبَراً مخبِّراً قام ينمى رَجْعَ أخبارِ
قال : ابن أمك ثاوٍ بالضّريحِ وقد سدّوا عليه بألواحٍ وأحجارِ

---

(١) « أنيس الجلساء » ٣٣ ، وتقصد بالغائرين هنا غير المقيمين ، من غار إذا أتى الغور ، ويقال فى الرجل الجواب : غار وأنجد .

(٢) أطمارى : جمع طمر وهو الثوب الخلق ، إشارة إلى أنها لا تلبس الجديد حزناً وحداداً .

فاذْهبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ من رجلٍ ... منَّاعِ ضيمٍ وطلاَّبٍ بأوتار

. . . .

أبكي فتى الحيِّ نالتْـه منيَّتُـه ... وكلُّ نفسٍ إلى وقتٍ ومقدار
وسوف أبكيكَ ما ناحتْ مطـوَّقةٌ ... وما أضاءتْ نجومُ الليلِ للسَّارى
ولا أسالم قومًا كنت حَرْبَهُمُ ... حتَّى تعودَ بياضًا جُونَةُ القارِ
أبلغ سُلَيْمًا وعَوْفًا إنْ لقيتهمُ ... عميمةً من نداءٍ غيرِ إسْرارِ[1]
أعْنى الذين إليهم كان منزلُه ... هل تعرفون ذِمامَ الضيفِ والجارِ
لو منكُمُ كان فينا لم يُنَلْ أبدًا ... حتى تُلاقى أمورٌ ذاتُ آثارِ
لا نومَ حتى تقودوا الخيلَ عابسةً ... ينبذْنَ طَرْحًا بِمُهْرات وأمْهارِ
أو ترحضوا عنكمُ عارًا تجلَّلكم ... رحض العواركِ حيْضًا عند أطهارِ
كأنَّهمْ يومَ رامُوهُ بأجمعهمْ ... راموا الشَّكيمة من ذى لِبْدة ضارِ
حامى العرين لدى الهيجاءِ مضطلعٌ ... يفرى الرجالَ بأنياب وأظفارِ

ورابعة القصائد ، يائية مقيدة من بحر الطويل أبياتها سبعة ، نحس فيها الانفعال الحزين ، ويهز وجداننا رنينها المثير الذى تجعله « الهاء الساكنة » شبيهًا بالنواح ، كما يهزنا تكرار بعض المقاطع فى إيقاع بالغ الإثارة :

ألا لا أرَى فى النَّاس مثلَ « معاويه » ... إذا طرقتْ إحدى الليالى بداهيَهْ
بداهيــةٍ يصغى الكلابَ حسيسُها ... وتخرج من سرِّ النجىِّ علانيــهْ
ألا لا أرى كالفارسِ الوَرْدِ فارسًا ... إذا ما علتــه جرأةٌ وغلانيهْ[2]
وكان لزازَ الحرب عنــد شُبوبها ... إذا شمَّرتْ عن ساقِها وهْيَ ذاكيهْ
بلينا وما تبلى « تِعارٌ » وما تُرَى ... على حدَثِ الأيامِ إلاَّ كما هيَهْ[3]
فأقسمْتُ لا ينفكَ دمعى وعَوْلتى ... عليك بحزن ما دعا اللهَ داعيَهْ[4]

---

(١) أى رسالة عامة واضحة لا سر فيها .

(٢) الغلانية : الغلو فى الجرأة .

(٣) تعار : جبل — انظره فى بلدان ياقوت : ٢ / ٣٦٤ ط الخانجى

(٤) « أنيس الجلساء » ٨٩ .

ونضع بعدها : ميمية مقيدة من مجزوء الكامل أيضًا ، قصيرة النفس ، أبياتها ستة فحسب ، تستهل كسابقتها بخطاب العين فى شىء من التكلف — فى البيت الثانى — ثم تنثنى فتعدد مناقب الفقيد وسجاياه على النحو الذى سوف يتكرر فيما بعد :

يا عينُ جودى بالدُّمو ع المستهلات السَّواجمْ
فيضًا كما انْخرقَ الجُما نُ وجالَ فى سِلْكِ النَّواظمْ
وابكى « معاويةَ » الفتى وابْنَ الخضارمَةِ القماقمْ
والحازمَ البانى العُلا فى الشَّاهقات من الدَّعائمْ
تلقى الجزيلَ عطاؤه عند الحقائق غيرَ نادمْ

كما نضع مرثيتها البائية :

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريابا

وقد نص « البحترى » فى حماسته ، على كونها رثاء فى معاوية .

* * *

وإذ هى فى حزنها وأساها ، يبلغها أن أحد بنى جُشَم — قوم دريد بن الصمة — قتل غريمها « هاشم بن حرملة المرى » ثأرًا لمعاوية . وكان « هاشم » قد خرج غازيًا ، فلما كان بديار بنى جشم ، رآه « قيس بن الأمرار الجشمى » فقال : « هذا قاتل معاوية ، لا والت نفسى من والاه » .

ثم مضى على أثره يترصد خطاه ، حتى جاء من خلفه فضربه بسيفه ضربة قاضية . وذاع النبأ حتى بلغ دور « بنى سليم » وأرهف الجمع آذانهم يتسمعون ما تقول « الخنساء » تحية لهذا الصديق وابتهاجًا بمقتل هاشم .

وقالت الخنساء[1] :

فدًى للفارسِ الجُشَمىِّ نفسى وأفديه بمن لى من حميمِ
وأفديه بكل بنى سُلَيْمٍ بظاعنِهِمْ وبالأنسِ المقيمِ

---

(١) « أنيس الجلساء » ٨٠ .

أفدّيه كما أقـررتَ عيني وكانت لا تنامُ ولا تُنيمُ
خصصتُ بها أخا الأمرار «قيْساً» فتى فى بيت مكرمةٍ كريمُ[١]

ثم لم تزد . . .

وعصيت شاعريتها فلم تجُد بغير هذه الأبيات الثقيلة على السمع ، الشبيهة بنظم المناسبات ، بما يغلب عليها من تكلف ، وغلو ، ومعاظلة ، وتكرار ، مع ما يعيبها من إقواء .

* * *

على أن « الخنساء » لم يـُرضها من الثأر قتلُ « هاشم » ، كما لم يرضها من قبل ما بلغ أخوها « صخر » من بنى مرة ، بل هبت بعد مقتل هاشم ، تحرض قومها على مزيد من الثأر ، فى قصيدة لا تخلو من تكلف وتكرار ، ولا تعبر عن حزن صادق ، ولا تثير شجواً ومشاركة وجدانية ، وإنما هى لفتة سريعة إلى الخسارة المادة بقتل « معاوية » ، ودعوة إلى الإلحاح فى الخصومة ، بغية مزيد من الفوائد يعوض الخسارة فى الفقيد[٢] :

لا شىءَ يبقى غير وجهِ مليكنا ولستُ أرى شيئًا على الدهر خالدا[٣]
ألا إنّ يوم « ابن الشّريد » ورَهْطه أبادَ جفانًا والقدورَ الرّواكدا
همُ يملئـونَ لليتيمِ إنـاءَهُ وهمْ ينجـزون للخليـلِ المواعدا

. . . .

ونحن قتلنـا « هاشمًا » وابنَ أخته ولا صُلحَ حتى نستفيد الخرائدا[٤]
فقد جـرَت العادات أنّا لدى الوغى سنظفرُ والإنسانُ يبغى الفـوائدا

ولها فى « معاوية » دالية أخرى من البسيط ، أبياتها تسعة ، بدليل قولها :

---

(١) رفعت كلمة كريم على أنها صفة لفتى ، ويلاحظ أن القافية فى البيتين الأخيرين مضمومة فى حين أنها مكسورة فى البيتين الأولين ، وهو إقواء .

(٢) « أنيس الجلساء » : ١٧ .

(٣) ويروى : « ولست أرى حياً . . . »

(٤) ويروى: ونحن قتلنا مالكاً وابن أخته ولا سلم حتى يشتفين عوائدا

عينى جـــودا بدمع منكما جودا جودا ولا تعِدا فى اليــوم موعودا
هل تدريان على من ذا ســبابتكما على ابن أمى أبيت الليــل معمودا

* * *

وندع هذا الدور وقد خرجنا منه بملاحظ ثلاثة :

١ ــ أن الخنساء قالت من الشعر قبل موت « صخر » مراثى ذات عدد ، تكفى للرد على من حددوا ظهور شاعريتها بموت صخر .

٢ ــ أن سمات مراثيها وضحت فى هذا الدور ، وسنراها تتكرر وتزداد جلاء فيما يلى من مراث .

* * *

الدور الثالث :

وهو الدور الذى استأثر كما قلنا باهتمام مؤرخى الأدب حتى أهدر بعضهم كل ما عداه .

وإذا كنت قد حرصت على عرض نماذج من شعر « الخنساء » قبل الدور الصخرى لأصحح به خطأ القول بأنها لم تقل الشعر إلا راثية لصخر ، فإنى أعود هنا فألتمس لقائليه كل العذر ، إذ أجد الخنساء قد جاوزت فى إعلان الحزن على أخيها أقصى المدى ، ورثته بقصائد تكفى لأن تكون ديوان شاعرة .

وفى الحق أن شعراء المراثى فى العربية جدّ كثار ، وأن رثاء الإخوة يكاد يظفر بالمكان الأول فى ديوان الرثاء العربى ، وبحسبى أن أذكر هنا أن شعراء الرثاء المقدمين عند « ابن سلام » رثوا إخوتهم ، وأن « مهلهلا » رثى أخاه كليبا ، كما رثى « لبيد بن ربيعة » أخاه « أربد » ، وبين الراثيات العشر اللواتى اختار لهن « البحترى » فى حماسته ، ثمانى شاعرات رثين الإخوة ! وبين الشواعر اللواتى ذُيِّل ديوان الخنساء بمختارات من مراثيهن ، نحو عشرين شاعرة رثت أخاها . لكننا مع ذلك ، لا نعرف أخًا من كل هؤلاء . ظفر بعدد من المراثى كتلك التى ظفر بها « صخر » من أخته « الخنساء » .

ومن هنا يبدو عذرُ الذين لم يعرفوا « الخنساء » إلا راثية لصخر .

ومهما نتخلص نحن من تلك الفكرة المسيطرة ، ونذكر للخنساء شعرها فى غير « صخر » ، فلن نستطيع بحال ما أن ننكر أن رثاءها لأخيها قد استغرق أكثر ديوانها ، وأنها بذلك قد وجّهت النقاد القدامى ، ابتداء، إلى فكرة تحديد المجال الفنى للشاعرة العربية بالرثاء .

على أنا مع ذلك ، نجد لها — حتى فى هذا الدور — قصائد لم ينفرد بها « صخر » وحده ، وإنما قاسمه إياها الشقيق « معاوية » .

ولكى نستطيع أن نحدد السمات الخاصة للخنساء فى الرثاء الذى هو الفن الغالب عليها ، يجب أن نبدأ أول الأمر بترتيب مراثيها فى هذا الدور زمنياً ، حتى يتيسر لنا أن نتتبع تلك السمات فى مراحلَ تميزها . وإذا كانت محاولتنا مثل هذا الترتيب الزمنى قد اكتنفها شىء من الصعوبة فى الدورين الأول والثانى ، فالأمر هنا أصعب وأشق ، إذ القصائد كلها فى الرثاء ، والكثرة الغالبة منها فى « صخر » ، مما يعز معه أن نحدد أيتهن سبقت الأخريات .

غير أنا رغم ذلك مضينا فى المحاولة ، وكان شعر الخنساء ، فى ضوء ما نعرف من حياتها ، هو المرجع والدليل ، فاستطعنا أن نميز قصائد هذا الدور فى مجموعات ثلاث :

أولاها ، نسمع فيها صوت النعى ، ونلمح أثر الصدمة القريبة والحزن الجديد. وهذه جميعاً فى « صخر » وحده ، إذ ليس من الطبيعى أن تشغل « الخنساء » عقب مصرع أخيها الأعز : برثاء أحد سواه .

وتتلو هذه القصائد ، مراثيها المشتركة فى الأخوين معاً . بعد أن أجهدها البكاء على « صخر » وحده ، واستنفد طاقتها على رثائه منفرداً ، فانثنت تتحدث عن الفجيعة المزدوجة فى أخويها ، لعلها تجد مجالاً لجديد من القول .

ثم تعود إلى « صخر » وقد ذاعت مراثيها فيه وحزنها عليه ، تستحث عينيها أن تبكياه ، وتجهد شاعريتها لتجود بمزيد من رثائه .

وهذه هى النماذج المختارة من كل مجموعة ، مرتبة على هاتيك المراحل الثلاث المتعاقبة ، وإنا لنرجو أن تعين هذه المحاولة على جلاء الخصائص الفنية لمراثى الخنساء المبكرة والمتأخرة ، وأن تساعد على وزن شاعريتها ونقدها .

* * *

١ ــ وأول ما يلقانا من مراثى الخنساء فى صخر ، تلك التى قالتها والمناحة قائمة . وفيها تقف نادبة معولة ، تواتيها شاعريتها بروائع مثيرة ، لا نشك فى أنها قيلت عقب مصرع «صخر» وصوت الناعى يقرع الآذان ، فتكذب سمعها حيناً حتى إذا عم النبأ الفاجع ، وقفت نائحة ملتاعة ، تبكى الجمال والفروسية والندى ، وترى العيشَ من بعده لا خير فيه :

أبنْتُ صخرٍ تلكم الباكيَهْ ... لا باكىَ الليلةَ إلاّ هِيَهْ[1]

أوْدَى «أبو حسّانَ» واحَسْرتا ... وكان «صخرٌ» مَلِكَ العاليهْ

ويلاىَ ما أرحَم ويلاّ ليه ... إذ رَفَعَ الصوتَ الندىَّ الناعيهْ

كذّبتُ بالحقِّ وقد رابنى ... حتّى علتْ أبياتنا الواعيه

بالسيّدِ الحاو الأمينِ الذى ... يَعْصِمُنا فى السَّنَةِ العاديهْ

لا خيرَ فى عيش وإن سرّنا ... والدّهرُ لا تَبْقَى له باقيهْ

كلّ امرئ سُرَّ به أهلُه ... سوفُ يُرى يوماً على ناحيهْ

ورائية لها أبياتها خمسة وعشرون[2] ، قالتها لما جاءها خبر هلكه ، فيها اللهفة الحارة والحزن المستثار ، والشاعرية المرهفة تستجيب لدفع الوجدان بهذا الوزن «السريع» والرنين المقيّد ، فكأنها صرخات قلب مقطع ممزق ، وأناتُ صدر متصدع ، ولهاث لوعة باتت تباريحها تتقدح فى قلبها شجناً من شرار النار :

يا عينُ جودى بالدّموع الغزارْ ... وابْكى على أرْوَعَ حامى الذّمارْ

أقولُ لمّا جاءنى هُلْكه ... وصرّح الناسُ بنجوَى السِّرارْ

---

(١) «أنيس الجلساء» : ٩٠ .

(٢) «أنيس الجلساء» : ٣٨ .

أُخَيَّ إمَّا تكُ وَدَّعْتَنا ... وحال من دونك بُعْدُ المَزارْ
فرُبَّ عرفٍ كنتَ أسْدَيْتَه ... إلى عيال ويتامى صغارْ
وربّ نعمى منك أنعمتَها ... على عُناةٍ غُلِّقٍ فى الإسارْ
أهلى فِداءٌ للّذى غودرتْ ... أعظُمُهُ تلمعُ بينَ الخُبارْ(١)
من كان يوماً باكياً سيّداً ... فليبكه بالعَبَرات الحِرارْ
ولْتَبْكِه الخيلُ إذا غودرتْ ... بساحة الموتِ غداةَ العِثارْ
وليبكِهِ كلُّ أخى كُرْبةٍ ... ضاقتْ عليه ساحةُ المستجارْ

. . . .

قُلْ للّذى أضحى به شامِتاً ، ... إنّك والموتَ معاً فى شعارْ(٢)
هَوَّنَ وَجْدى أنَّ من سَرَّهُ ... مَصْرَعُهُ لاحِقُهُ لا تُمارْ(٣)
وإنما بينهما رَوْحَةٌ ... فى إثْرِ غادٍ سارَ حَدَّ النّهارْ
حلفتُ بالبيتِ وزوّارِهِ ... إذْ يُعملون العيس نحو الجِمارْ(٤)
لا أجزعُ الدّهرَ على هالكٍ ... بعدكَ ما حنّتْ هوادى العشارْ
يا لوعةً باتتْ تباريحُها ... تقْدَحُ فى قلبى شجاً كالشّرارْ
أبْدَى لىَ الجَفْوَةَ مَنْ بَعْدِهِ ... مَنْ كانَ مِنْ ذى رَحِمٍ أو جِوارْ

ويخرجها الحزن عن طورها ، فتتمنى لو أطبقت السماء على الأرض وهلك الناس جميعاً فما يعنيها بعد « صخر » أحد(٥) :

ألا ليتَ أمّى لم تلدْنى سويّةً ... وكنتُ تُراباً بين أيدى القوابلِ
وخرّتْ على الأرض السماءُ فطبّقتْ ... وماتَ جميعاً كلُّ حافٍ وناعلِ
غداةَ غدا ناعٍ لصخرٍ فراعنى ... وأوْرَثنى حزناً طويلَ البلابلِ
فقلت له : ماذا تقولُ ؟ فقال لى ... نَعَى ما ابن عمرٍو أثكلته هوابلى

(١) الخبار : الأرض الرخوة ذات الحجارة .
(٢) الشعار : ما يلى الجلد من الثياب .
(٣) لا تمار : لا تجادل وهو مجزوم بلا الناهية على حذف حرف العلة . وسكن للشعر .
(٤) أعمل العيس : ساقها . الجمار : جمع جمرة وهو الحصى يرميها الحجاج . فى وادى « منى » .
(٥) « أنيس الجلساء » ٦٨ .

فأصبحتُ لا ألتذ بعدكَ نعمةً حيَاتى ولا أبكى لدعوةِ ثاكلِ
فشأن المنايا بالأقاربِ بَعْدَهُ لتُعلِلْ عليهم عَلَةً بعد ناهلِ

وتسودّ الدنيا فى وجهها ، ويلوح لها الكون أغبر ، قد كسفت شمسه واضطرب قمره ، وتحس كأن كل مَن فيه يبكى معها[1] !

يا عينُ جودِى بالدّمو عِ على الفتى القرْمِ الأغرّْ[2]

. . . .

والشمسُ كاسفةٌ لمَهْ لَكِه وما اتّسَقَ القمَرْ
والإنْس تبكى وُلّهًا والجنُّ تُسعد من سَمَرْ
والوحش تبكى شجْوَها لمّا أتى عنه الخبَرْ
المدْرَهُ الفيّاضُ يَحْ مِلُ عن عشيرته الكُبَرْ
يُعْطِى الجزيلَ ولا يمُ نُّ وليس شيمتُه العَسَرْ
وَيْلِى عليهِ وَيْلَةً أصبحتُ حصْنِى منكسرْ

وما أحسبنا نضيق بهذا الغلو أو نرى فيه تكلفًا ، فمثل « الخنساء » فى مصابها جديرة بأن تحس خراب الكون من بعد « صخر » ، وتشعر بأن الدنيا تشاركها الحزن عليه .

وكذلك تبدو على حالها من الجزع المسرف ، فى قصيدة لها حائية مقيدة ، أبياتها عشرون ، من مجزوء الكامل كذلك[2] ، والمناحة لا تزال قائمة ، والنوادب ينحن على الفقيد :

يا عينُ جودِى بالدّمو عِ المستهلاّتِ السّوافحْ
فيضًا كما فاضتْ غُرو بُ المُتْرَعاتِ من النّواضحْ
وابكى لصخرٍ إذْ ثوى بين الضّريحةِ والصّفائحْ[3]

. . . .

الحاملُ الثّقْلَ المهِمَّ من الملمّات الفوادح

(١) « أنيس الجلساء » ٣٦ .
(٢) « الديوان » : ١٠ .
(٣) الصفائح : الحجارة العريضة .

الجابرُ العظمَ الكسيـرَ من المهاصرِ والممانحْ
فأصابنا ريبُ الزمان فنالنا منه بناطحْ
فكأنما أمَّ الزمانُ نحورَنا بمُدَى الذبائحْ[1]
فنساؤنا يندبْنَ نَوْحًا بعد هادية النوائحْ

يندبن فقدَ أخي الندى والخيرِ والشيَم الصوالحْ
والجودِ والأيدى الطوالِ المستفيضات السوامحْ
فالآن نحنُ ومَنْ سوانا مثلُ أسنانِ القوارحْ

ومن قصائدها المختارة فى هذه الفترة كذلك ، لامية[2] مقيدة من السريع ، وأبياتها خمسة عشر ، وفائية[3] مقيدة أيضًا ، من مجزوء الرمل ، أبياتها تسعة عشر وهائية[4] مردفة ، من الوافر ، أبياتها واحد وعشرون ، نرى الخنساء فيها لا تزال تئن من أثر اللطمة ، وتترنح تحت وطأة المصاب ، وتنوح على فقيدها نواحًا يثير أعمق الشجن :

ياعينُ جودِى بالدموع السُّجولْ وابكى على صخرٍ بدمع هَمولْ[5]
لا تخذلينى عندَ جِدِّ البُكا فليس ذا ياعينُ وقتَ الخُذولْ
ابْكى «أباحسَّانَ» واسْتَعْبرى على الجميلِ المستضافِ المخيلْ
نِعْمَ أخو الشَّتْوِ حلَّتْ به أراملُ الحىِّ غداةَ البَليلْ[6]
يأتينَهُ مستعصمات به يُعْلِنَّ فى الدارِ بدعوى الأليلْ[7]
ونعمَ جارُ القومِ فى أزمةٍ إذا التجا الناسُ بجارٍ ذليلْ
لا يحبسُ الخيرَ على نفسِه بل عنده من جاءَهُ فى فضولْ

---

(١) أم : قصد . المدى : وجمع مدية وهى الشفرة .

(٢) « الديوان » : ٦٩ .

(٣) « الديوان » ٥٩ .

(٤) « الديوان » : ٨٦ .

(٥) السجول : التى تصب سجلا بعد سجل .

(٦) البليل : الريح الباردة .

(٧) الأليل : الموجع المريض .

وتقول فى الفائية :

مَرِهَتْ عينى فعينى | بعد صخر عَطِفَهْ
فدموعُ العينِ منى | فوق خدى وكِفَهْ
إنّ نفسى بعد صخر | بالرَّدَى معترفَه
وبها من صخر شىء | ليس يُحكَى بالصّفَهْ !

وبنفسى لَتهُمومٌ | فهى حَرَّى أسِفَهْ
وبذكرى صخرٍ نفسى | كلَّ يومٍ كَلِفَهْ
إنَّ صخرًا كان حِصْنًا | ورُبَّى للنَّطِفَهْ
وغياثًا وربيعًا | للعجوزِ الخرِفهْ
وإذا هبَّتْ شمالٌ | أو جَنوبٌ عَصِفَهْ
نَحَرَ الكُومَ الصَّفايا | والبِكارَ الخلِفَهْ

وتقول فى هائيتها — وقد غنى « ابن جامع » ببعض أبياتها أحد الأصوات المئة المختارة — تصور جزعها وجزع بنى عمرو على الفقيد ، تصويرًا مؤثرًا ، فشيوخهم قد بلّ الدمع لحاهم ، والخنساء تسألهم عمن تركوا هنالك وحيدًا فى الثرى :

بكت عينى وعاوَدَها قذاها | بعُوّارٍ فما تقضى كَراها
على صخرٍ وأىُّ فتًى كصخرٍ | إذا ما النَّابُ لم ترأمْ طَلاَها (١)
لئنْ جزعتْ بنو عمرٍو عليه | لقد رُزِئتْ بنو عمرو فَتاها
له كفٌّ يشدُّ بها وكفٌّ | تَحَلَّبُ ما يجِفُّ ثرى نداها
ترَى الشُّمَّ الجحاجِحَ مِن سُلَيمٍ | يبلُّ نَدَى مدامعها لحاها (٢)

. . . .

فلم أملكْ غداةَ نعىّ صخرٍ | سوابقَ عَبْرةٍ حُلِبتْ صَراها (٣)

(١) الناب : الناقة المسنة . لم ترأم : لم تعطف . الطلى : الولد .
(٢) الشم الجحاجح : الأشراف أولو المنزلة الرفيعة . واللحى : جمع لحية .
(٣) صرى الدمع : اجتمع و لم يجر .

أمطعمكم وحاملكم تركتم لدى غبراء منهدم رجاها
ليبكِ عليك قومك للمعالى وللهيجاء إنك ما فتاها
وقد فقدتك «طلقةُ» فاستراحت فليتَ الخيلَ فارسُها يراها[1]

* * *

وتهدأ المناحة قليلاً وينفض المأتم ، فنرى الخنساء — والعهد بصخر جد قريب — تعكف على مراثيها مجوّدةً ، فتدع القصائد ذات الوزن السريع والقافية المقيدة — وهما من أكثر الأوزان والقوافى ملاءمة للنواح — إلى القوافى المنطلقة والبحور الطويلة ، وتلقانا بتلك القصائد المشهورات التى طالما أعجبت النقاد من قديم ، لفرط ما بلغت فيها « الخنساء » من تجويد الصنعة وإحكامها

والحق أن هذه القصائد فى جملتها قوية البناء ، لا يئودها تكلف ولا يثقلها استكراه ، وهى تفيض باللوعة الصادقة والانفعال الوجدانى المثير ، فهى فى إحداها تصور لنا حالها إذ بلغها النعى المشئوم ، فكادت نفسها من الحزن تتبعه وهى لا تكاد تتصور كيف تستطاع الحياة من غير صخر[2] :

لقد صوّتَ النّاعى بفقد أخى النّدَى نداءً لعمرى ، لا أبالَكَ ، يُسْمَعُ
فقمت وقد كادتْ ، لرَوْعة هُلْكه وفَزْعته ، نفسى من الحزن تَتْبَعُ
إليه كأنى ، حوبةً وتخشُّعًا ، أخو الخمر يسمو تارةً ثم يُصْرَعُ
فمَنْ لِقِرَى الأضياف بعدك إنهُم قُبالَك حلوًّا ثم نادَوْا فأسْمَعوا
كعهدِهِم إذْ أنتَ حىٌّ وإذ لهُمْ لديكَ منالاتٌ ورِىٌّ ومَشْبَعُ
ومن لمهمٍّ حَلَّ بالجارِ فادح وأمرٍ وهَى من صاحب ليس يُرْقَعُ
ومَنْ لجليس مُفْحِش لجليسه عليه بجهلٍ جاهدًا يتسرّعُ
ولو كنتَ حيًّا كان إطفاءُ جهله بحلمك فى رِفْقٍ ، وحلمُكَ أوسَعُ
وكنتُ إذا ما خفتُ إردافَ عُسْرَةٍ أظلُّ لها من خيفة أتقنّعُ
دعوتُ لها صخرَ النّدَى فوجدتهُ له موسرٌ يُنفَى به العُسْرُ أجمعُ

---

(١) طلقة : اسم فرس لصخر ، والبيت من مختارات « قدامة بن جعفر » فى صحة المعنى .

(٢) « أنيس الجلساء » ٥٤ .

وفى رائية لها ، أبياتها سبعة عشر ، من بحر الطويل ، تصف مسيرها وراء النعش تسأل الذين مشوا به ماذا يحملون وراء القبر [١] :

أعينىَّ هلاَّ تبكيانِ على صخرِ ... بدمعٍ حثيثٍ لا بكىءٍ ولا نَزْرِ
وتستفرغانِ الدَّمْعَ أو تذْرِيانِهِ ... على ذى النَّدَى والجودِ والسيِّدِ الغَمْرِ [٢]
فشأنُ المنايا إذ أصابكَ رَيْبُها ... لتغدو على الفتيانِ بعدكَ أو تسرى
فمَنْ يضمنُ المعروفَ فى صلبِ ماله ... ضمانَكَ أو يَقْرِى الضيوفَ كما تقرى ؟

. . . .

وقائلة ، والنَّعْشُ قد فات خَطْوها ... لتدركَهُ : يا لهفَ نفسى على صَخْر
ألا ثكلتْ أمُّ الذين غدَوْا به ... إلى القبرِ ، ماذا يحملونَ إلى القبرِ ؟
وماذا يُوارِى القبرُ تحتَ تُرابهِ ... من الخيرِ ، يابؤسَ الحوادوثِ الدهرِ!

ولعلها قالت فى تلك الفترة أيضًا رائيتها التى أنشدتها « النابغة الذبيانى » فى سوق عكاظ [٣] :

قذًى بعينكَ أمْ بالعينِ عُوّارُ ... أمْ ذرَّفتْ إذ خلتْ من أهلها الدّارُ
كأن عينى لذكراهُ إذا خطَرَت ... فيضٌ يسيلُ على الخدَّين مدرارُ
تبكى لصخرٍ هى العَبْرَى وقد ولِهَتْ ... ودونَهُ من جديد التربِ أستارُ
تبكى «خناسُ» فما تنفكُّ ما عمَرتْ ... لها عليهِ رنينٌ وهْىَ مِفْتارُ
تبكى «خناسُ» على «صخرٍ» وحقَّ لها ... إذ رابَها الدهرُ إنَّ الدهرَ ضرّارُ

. . . .

وإن صخرًا لَوالينا وسيدُنا ... وإنَّ صخرًا إذا نشتو لنحَّارُ
وإنَّ صخرًا لمقدامٌ إذا ركبوا ... وإنَّ صخرًا إذا جاعوا لعَقَّارُ
وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنه عَلَمٌ فى رأسِهِ نارُ
جَلْدٌ ، جميلُ المحيَّا ، كاملٌ ، وَرِعٌ ... وللحروبِ غداةَ الرَّوْعِ مِسعارُ

---

(١) « أنيس الجلساء » ٢٨ .
(٢) السيد الغمر : الكريم الغامر عطاؤه .
(٣) « أنيس الجلساء » ٢٤ .

حمَّالُ ألويةٍ ، هبَّاطُ أودية شهَّادُ أنديةٍ ، للجش جرّارُ

. . . .

قد كان خالِصَتى من كل ذى نسبٍ فقد أصبتُ فما للعيش أوطارُ
ليبكه مُقْتِرٌ أفْنَى حريبَتَه دهرٌ، وحالَفَه بؤسٌ وإقتارُ(١)
ورفقةٌ حارَ حاديهم بمهلكة كأنَّ ظلمتها فى الطّخْية القارُ(٢)
لا يمنعُ القومَ إن سألُوهُ خلعَتَهُ ولا يجاوِزُهُ بالليلِ مُرّارُ

* * *

ثم كان الهدوء الذى يعقب العاصفة ، فتخلو « الخنساء » إلى شجوها وأساها وتلقانا بمقطوعات قصار ، تجتر فيها حزنها على مهل ، وتتذوق أشجانها فى تأمل وادع ، وترنو إلى جراحها متعبة مجهدة . وهذه المجموعة من أجمل مراثيها ، وأحفلها بالمشاعر الإنسانية التى تعكس صدى الإحساس العميق بمحنة الموت(٣) :

ألا يا صخرُ إن أبكيت عينى لقد أضحكتَنى زمنًا طويلا
بكيتُك فى نساءٍ مُعْوِلات وكنتُ أحقَّ مَنْ أبْدَى عويلا
دفعتُ بكَ الجليلَ وأنتَ حىٌّ فمَنْ ذا يدفعُ الخطبَ الجليلا
إذا قَبُحَ البكاء على قتيل رأيتُ بكاءَكَ الحسَنَ الجميلا

* * *

بنى سليمٍ ألا تبكونَ فارسَكُمْ خلَّى عليكم أمورًا ذاتَ أمراسِ(٤)
ما للمنايا تُغادينا وتطرُقُنا كأنَّنا أبدا نُحتزُّ بالفاسِ

* * *

تقولُ نساءٌ : شِبْتِ من غير كَبْرةٍ وأيْسَرُ مِمَّا قد لقيتُ يُشيبُ(٥)
أقُولُ : أبا حسَّانَ لا العيشُ طيّبٌ وكيفَ وقد أفردتُمنك يطيبُ !

---

(١) الحريبة : ما يتعيش به الإنسان من مال .
(٢) الطخية : الغيم يوارى النجوم فيتحير الهادى .
(٣) « أنيس الجلساء » ٧٢ .
(٤) « أنيس الجلساء » ٤٩ .
(٥) « أنيس الجلساء » ٥ .

فتى السنِّ كهلُ الحِلْمِ لا متسرِّعٌ ولا جامدٌ جَعْدُ اليدين جديبُ
أخو الفضلِ لا باغٍ عليه بفضْلِه ولا هو خَرْقٌ في الوجوهِ قطيبُ
إذا ذكرَ النَّاسُ السَّماحَ من امرئٍ وأكْرمَ أو قالَ الصَّوابَ خطيبُ
ذكرتُكَ فاستعبرتُ والصَّدْرُ كاظِمٌ على غُصَّةٍ منها الفؤادُ يذوبُ
لعمرى لقد أوهيتَ قلبي عن العَزا وطأطأت رأسي والفؤادُ كئيبُ
لقد قُصِمَتْ مني قَنَاةٌ صليبةٌ ويُقْصَمُ عودُ النَّبْعِ وهو رطيبُ (١)

* * *

لَهْفِي على صخر فإنِّي أرى له نوافلَ من معروفه قد تولَّتِ (٢)
ولهفى على صخرٍ لقد كان عصمةً لمولاهُ إن نعلٌ بمولاهُ زلَّتِ
وكنتَ إذا كفٌّ أتتك عديمةٌ تُرَجِّى نوالاً من سَحابك بُلَّتِ
ومختنقٍ راخَى « ابنُ عمرو » خِناقهُ وغُمَّتَهُ عن وجهه فتجلتِ
وظاعنةٍ في الحيِّ لولا عطاؤهُ غداةَ غدتْ من أهلِها ما استقلَّتِ

* * *

سقى جَدَثًا أكنافُ غمرةَ دونَهُ من الغيثِ ديماتُ الرَّبيعُ ووابِلُهْ
أعيُرهمُ سَمْعِي إذا ذُكِرَ الأسَى وفي القلبِ منه زفرةٌ ما تزايلُهْ
وكنت أعيرُ الدَّمْعُ قبلَكَ من بَكى فأنتَ على مَنْ ماتَ بعدَكَ شاغِلُهْ (٣)

* * *

إن الزمانَ وما يفنى له عَجَبٌ أبقى لنا ذَنَبًا واستؤصلَ الراسُ (٤)
أبقى لنا كلَّ مجهولٍ وفجَّعنَا بالحالمينَ فهمْ هامٌ وأرماسُ
إن الجديدينِ في طولِ اختلافِهما لا يفسدانِ ولكن يفسدُ الناسُ

* * *

---

(١) عود النبع : شجر تتخذ منه القسى لصلابته ، ويروى : « وهو صليب » .
(٢) « أنيس الجلساء » ٨ .
(٣) « أنيس الجلساء » ٧٨ . والبيت في (حماسة البحترى ٤٣٣) لليلى بنت سلمة !
(٤) « الديوان » : ٥١ — وهذه الأبيات هي التي قيل ان جريراً فضل بها الخنساء على نفسه .

ألا أيها الديكُ المنادى بسحْرةٍ هلمّ كذا أخبرْكَ ما قد بدا ليا(١)

بدا لىَ أنِّى قد رزئتُ بفتيةٍ بقيَّةِ قومٍ أورثونى المباكيا

فلمَّا سمعتُ النائحاتِ ينحْنَهُ تعزَّيتُ واستيقنتُ أن لا أخاليا

كصخرِ بن عمرٍو، خيرِ مَن قد علمته وكيف أرجّى العيش، ضلّ ضلاليا؟!

وما لىَ لا أبكى مَنْ لو انَّهُ تقدَّمَ يومى قبلَهُ لبكَى ليا

وإن تُمسِ فى قبسٍ وزيدٍ وعامرٍ وغسَّانَ، لم تسمعْ له الدهرَ لاحيا

* * *

ما لِذا الموتِ لا يزالُ مُخيفًا كلّ يومٍ ينالُ منَّا شريفا(٢)

مولَعًا بالسَّراةِ منَّا فما يأ خذُ إلاّ المهذّبَ الغطْريفا

فلو انَّ المنونَ تعدِلُ فينا فتنالَ الشريفَ والمشروفا

كان فى الحقّ أن يعودَ لنا المو تُ وأنْ لا نسومَه تسويفا

أيها الموتُ لو تجافيتَ عن صخ رٍ لألْفيتَه نقيًّا عفيفا

عاش خمسين حِجّةً يُنْكِرُ المُنْ كَرَ فينا ويبذلُ المعروفا

ونخلص من هذه الفترة المبكرة التى أعقبت وفاة صخر بالملاحظ الآتية :

أن شعرها فى مناحة صخر، قد غلب عليه الوزن السريع والقافية المقيدة، وهما من أكثر الأوزان والقوافى ملاءَمة للنواح .

وهى تبدو فيه مستثارة الحزن مترنحة تحت هول المصاب، فتكاد قصائدها إذ ذاك أن تكون ندبًا وعويلا، وإذا كانت قد كررت بعض ألفاظها أو معانيها، أو كانت قد نزعت إلى شيء من الغلو فى الحزن أو فى ذكر مآثر الراحل، فليس إلى الحد الذى نضيق به أو ننكره، بل لعله أقرب إلى أن يكون أمرًا طبيعيًّا فى مثل ذاك الموقف، من نائحة تبكى أعز فقيد، وتعدّد مآثره .

فأما بعد أن انفض المأتم، فأكثر مراثيها محكمة مجوّدة تعقبها مقطوعات

(١) « الديوان » : ٨٩ .

(٢) « أنيس الجلساء » ٥٨ .

قصار ، تندر فيها القوافى المقيدة . والوزن الغالب عليها هو الطويل أو الوافر ، مما يناسب فترة الهدوء الحزين بعد الكارثة .

وأخص ما تتميز به هذه المقطوعات ، النزعة التأملية ، ومن ثم كثرت فيها الحِكَم دون تكلف أو اصطناع . وقلما تخلو مقطوعة منها من تعبير عن مشاعر إنسانية ، ووجدان مرهف ، ولوعة صادقة تثير الشجن .

* * *

ب – أتراها إذن قد استنفدت ما يمكن أن يقال فى صخر ؟ لعلها أحست ذاك ، فالتمست مخرجًا من المجال المحدود ، وانثنت تذكر أخًا لها قتل من قبل ، وحزنت عليه يومئذ أشد الحزن ، ثم ألهاها المصاب الجديد حتى كاد ينسيها ما كان !

وهاج حزنها القديم ، وتصدع قلبها للفجيعة المزدوجة فى الأخوين الفارسين : أجمل شباب مضر ، فإذا شاعريتها تُستثار منفعلة بهذا المصاب العام للقبيلة. وتستمد منه طاقة جديدة على التعبير المؤثر والإنشاد الحزين ، فتجود بروائع من شعرها المعبر عن الذاتية الجماعية ، نختار منها :

تعرَّقنى الدَّهرُ نهسًا وحَزًّا ... وأوجعنى الدهرُ قرعًا وغَمْزًا[1]

وأفنَى رجالى فبادُوا معًا ... فغودِرَ قلبى بهم مُستَفَزًّا

كأنْ لم يكونوا حِمًى يُتَّقَى ... إذِ الناس إذ ذاكَ : من عَزَّ بَزَّا[2]

وكانوا سَرَاةَ بنى مالك ... وزَيْنَ العشيرة بذْلاً وعِزًّا

وهمْ فى القديم أساةُ العديـ ... ـم والكائنون من الخوف حِرْزًا

وهمْ منَعُوا جارهُمْ والنِّسا ... ء يَحْفِزُ أحشاءَها الخوفُ حَفْزا

. . . .

غداةَ لَقُوهم بملمومةٍ ... رداح تغادرُ فى الأرضِ رِكْزًا

ببيضِ الصِّفاح وسُمْرِ الرِّماحِ ... فبالبيضِ ضربًا وبالسُّمْرِ وَخْزًا

---

(١) الديوان : ٤٧ – والنهس ، بالأسنان : والحز : القطع .

(٢) من عز بز : مثل ، معناه : من غلب سلب .

وخيل تكدسُ بالدّارعينَ وتحت العجاجة يجمِزْن جَمْزَا
جززْنا نواصِيَ فُرسانِها وكانُوا يظنون ألاّ تُجَزَّا
ومن ظنّ ممَّنْ يُلاقِي الحروبَ بأنْ لا يصابَ فقد ظنّ عَجْزا
نعِفُّ ونعرفُ حقّ القِرَى ونتَّخذُ الحمدَ ذُخْرًا وكَنْزَا
ونلبسُ فى الحربِ نَسْجَ الحديدِ ونسحبُ فى السِّلْمِ خَزًّا وقَزَّا

وقافية لها من الوافر، أبياتها ثلاثة عشر، قيل إنها القصيدة التى رددتها على مسمع أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» حين لامها، ثم ما لبث أن قال فى تأثر: دعوها، فإنها ما تزال حزينة أبدًا. وفيها تبكى شجوها وذكريات ماضيها السعيد — على قلة ما فعلت — كما تذكر أمجاد قومها وعزهم السالف[١]:

هريقِى من دموعكِ أو أفيقِى وصبْرًا إن أطقتِ ولن تُطيقِى
وقولى إنَّ خيرَ بنى سُلَيْمٍ وفارسَهم بصحراءِ العقيقِ
وإنّى والبكا من بعد صخرٍ كسالكةٍ سوى قصدِ الطريقِ

. . . .

ألا هَلْ ترجعنّ لنا الليالى وأيّامٌ لنا بلِوَى الشقيقِ
ألا يا لَهْفَ نفسى بعد عيشٍ لنا بنَدَى المحتّم والمضيقِ
وإذ يتحاكمُ السَّادات طرًّا إلى أبياتِنا، وذوو الحقوقِ
وإذْ فينا فوارسُ كلّ هَيْجَا إذا فزعوا وفتيانُ الحروقِ
وإذ فينا «معاويةُ بن عمرٍو» على أدْماءَ كالجملِ الفنيقِ
فبكّيه فقد ولّى حميدًا أصيلَ الرأىِ محمودَ الصّديق

ولامية لها من الوافر كذلك أبياتها تسعة، لا نخطىء فيها — كما لم نخطئْ فى سابقتها — المعنى الإنسانى الذى قد نفتقده كثيرًا فى مراثيها المتأخرة[٢]:

بكتْ عينى وحقّ لها العويلُ وهاضَ جَناحِى الحدثُ الجليلُ

... ...

(١) «الديوان»: ٦١.
(٢) «الديوان»: ٦٨.

معاوية بن عمرٍو كان رُكْنِي وصخرًا كان ظلَّهمُ الظَّليلُ
ذكرتُ فغالَنِي ونكا فؤادِي وأرَّق نومِيَ الحزنُ الطويلُ

ومقطوعة يائية من الطويل، أبياتها ستة ، من الطويل[1] :

أرَى الدَّهرَ أفنَى معشَرِي وبنِي أبِي فأمسيتُ عبْرَى لا يجفُّ بُكائيا
أيا صخرُ هل يُغْنِي البكاءُ أو الأسى على ميِّتٍ بالقبرِ أصبحَ ثاويا
فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صخرًا وعهْدَهُ ولا يُبْعِدَنَّ اللهُ رَبِّي مُعاوِيا
سأبْكيهما واللهِ ما حنَّ والِهٌ وما أثْبتَ اللهُ الجبالَ الرَّواسيا
سقَى اللهُ أرضًا أصبحتْ قد حوَتْهُما من المستهلاَّتِ السَّحابَ الغَوادِيا

ورووا لها أربعة أبيات ، عاظمت بها « هندا بنت ربيعة » فى سوق عكاظ ، بمصابها الفادح فى رجالها . والبيت الأول منها ، هو البيت الفرد اليتيمِ الذى رثت به « تماضر » أباها[2] :

أبكِّى أبي « عمْرًا » بعينٍ غزيرةٍ قليلٌ إذا نامَ الخلِىُّ هجودُها
وصِنْوَىَّ لا أنْسَى : معاويةَ الذى له من سَرَاةِ الحرَّتَيْنِ وفودُها[3]
وصخرًا ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا بساحتِهِ الآطال قَرْم يقودُها[4]
فذلك يا هندُ الرزيَّة فاعْلَمِي ونيرانُ حربٍ حين شبَّ وَقُودُها

كما رووا من مراثيها المشتركة فى أخويها، دالية أخرى من الوافر ، أبياتها سبعة[5] :

بكتْ عينِى وعاودتِ السُّهودا وبِتُّ الليلَ جانحةً عميدا
لذكرى معشرٍ ولَّوْا وخلَّوْا علينا من خِلافتهمْ فُقُودا

---

(١) « أنيس الجلساء » : ٨٩ .

(٢) « الديوان » : ٢٢ .

(٣) الحرتان هنا ، هما : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال . وأصل الحرة الأرض ذات الحجارة السود النخرة .

(٤) الآطال : جمع إطل ، الناقة الضامرة .

(٥) « الديوان » : ١٦ .

فكم من فارسٍ لك أمَّ عمرٍو يحوطُ سنانُه الأنَس الحَرِيدا[١]
كصخر أو معاويةَ بن عمرو إذا كانت وجوهُ القوم سودا

* * *

حـ — ثم نفرغ وتفرغ « الخنساء » من مراثيها فى أخويها معًا ، لتعود على بدء فترثى أخاها الحبيب « صخرًا » !

وفى هذه المراثى المتأخرة ، نراها تقلد نفسها وتدور فى حاقة مفرغة ، مكررةً ألفاظًا ومعانى لها سابقة . ولا تكاد تنجو مرثية لها متأخرة ، من أثر التكلف ومعاناة النظم وإجهاد القريحة . كما يبرز المعنى المادى فى مراثيها هذه ، بعد أن جاوزت المرحلة التى كانت جِدة الحزن فيها تهزها تحت وقع الصدمة ، وتستثير ما فى طاقتها من مشاعر الأخوة[٢] :

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مسكوبِ كلؤلؤٍ جالَ فى الأسْماطِ مثقوبِ !
إنى تذكَّرْتُهُ والليلُ معتكرٌ ففى فؤادِىَ صدْعٌ غيرُ مشعوبِ
نِعْمَ الفَتى كانَ للأضيافِ إذْ نزلُوا وسائلٍ حَلَّ بعد النومِ محروبِ

* * *

أهاجَ لكِ الدموعَ على ابْن عمرٍو مصائبُ قد رزئتِ بها فجُودى[٣]
بسَجْلٍ منكِ منحدرٍ عليه فما ينفكُّ مثلَ عَدَا الفريدِ[٤]
على فرعٍ رزئتِ به خناسُ طويلِ الباعِ فيَّاضٍ حميدِ
جليدٍ كان خيرَ بنى سُلَيْم كريمهم المسوَّدِ والمسودِ

. . . .

---

(١) الحريد : المنفرد وأم عمرو ، فى البيت ، هى جدة الخنساء وأخويها ، لأبيهم وفى (العقد الفريد) أن الخنساء كانت تكنى أم عمرو وقد يرجح هذا أن ولدها البكر : أبا شجرة بن عبد العزى ، أسمه عمرو

(٢) « أنيس الجلساء » : ٥ .

(٣) « أنيس الجلساء » ١٩ .

(٤) لعل الصحيح « مثل عرا الفريد » جمع عروة . قال ذو الرمة :

كأن عرى المرجان منها تعلقت على أم خشف من ظباء المشاقر

فلا يبعَدْ أبو حسَّانَ صَخْرٌ وحَلَّ بِرمْسِه طيرُ السعُودِ !

* * *

يا ابْنَ الشَّرِيدِ وخيرَ قيسٍ كلِّها خلَّفتَنِى فى حسرةٍ وتبلُّدِ [١]
فلأبكينَّكَ ما سمعتُ حمامةً تدعو هديلاً فى فروعِ الفرقدِ ! [٢]
قد كنتَ حِصْنًا للعشيرة كلِّها وخطيبَها عند الهُمامِ الأصْيَدِ !
فاذهبْ ولا تبعَدْ وكلُّ معمَّرٍ سيذوقُ كأسَ منيَّةٍ بتنكُّدِ !

* * *

يا عينُ جودى بدمعٍ غيرِ منزورِ مِثلِ الجُمانِ على الخدَّيْنِ محدُورِ [٣]
وابكِى أخًا كان محمودًا شمائلُه مثلَ الهلالِ منيرًا غيرَ مغمورِ
وفارسَ الخيلِ وافتْهُ منيَّتُه ففى فؤادِى صَدْعٌ غيرُ مجبورِ
نِعْمَ الفتى كنتَ إذ حنَّتْ مرفرفةً هوجُ الرِّياحِ حنينَ الوُلَّهِ الخُورِ
والخيلُ تعثُرُ بالأبطالِ عابسةً مثلَ السَّراحينِ من كابٍ ومعقورِ

* * *

أعينَىَّ جُودا بالدُّموعِ على صخرِ على البَطَلِ المقدامِ والسيِّدِ الغَمْرِ
لِيَبْكِ عليه مِنْ سايمٍ جماعةٌ فقد كان بسَّامًا ومحتضَرَ القِدْرِ [٤]

* * *

يا عينُ بكِّى بدمعٍ غيرِ إنزافِ وابكى لصخر فإن يكفيكِهِ كافِ [٥]
كُونِى كورقاءَ فى أفنانِ غيلتِها أو صائحٍ فى فروعِ النخلِ هتَّافِ
وابكى على عارضٍ بالوَدْقِ محتفلٍ إذا تهاونتِ الأحسابُ رجَّافِ [٦]
ومنزِلِ الضَّيفِ إن هبَّتْ مجلجلةٌ ترمى بصُمٍّ سريعِ الخسْفِ رسَّافِ

---

(١) « أنيس الجلساء » : ٢١ .
(٢) وروى : « الغرقد » وهو نبات كالعوسج .
(٣) « أنيس الجلساء » : ٣٨
(٤) « أنيس الجلساء » : ٥ . ومحتضر القدر : كناية عن كثرة ضيوفه .
(٥) « أنيس الجلساء » : ٥٨
(٦) الودق : القطر .

يالَهْفَ نفسي على صخرٍ وقد لَهِفَتْ ... وهل يَرُدَّنَّ خَبْلَ القلبِ تلهيفي (١)
ابْكي أخاكِ إذا جاورتِهِم سَحَرًا ... جودي عليه بدمعٍ غير منزوفِ
ابْكي المُهينَ تِلادَ المالِ إنْ نزلتْ ... شهباءُ ترْزَحُ بالقومِ المتاريفِ (٢)

* * *

يا عينُ جُودي بدمعٍ منكِ مُهْراقِ ... إذا هَدَى الناسُ أو هَمُّوا بإطراقِ (٣)
إني تذكرني صَخْرًا إذا سجَعَتْ ... على الغصونِ هَتوفٌ ذاتُ أطواقِ
وكلُّ عَبْرَى تبيتُ الليلَ ساهرةً ... تبكي بُكاءَ حزينِ القلبِ مشتاقِ
لا تكذبنَّ فإنَّ الموتَ مُخْتَرِمٌ ... كلَّ البريَّةِ إلا الواحدَ الباقي
أنتَ الفتى الماجدُ الحامي حقيقتَهُ ... تُعطِي الجزيلَ بوجهٍ منكَ مِشْراقِ
إني سأبكي أبا حسَّانَ نادبةً ... ما زلتُ في كلِّ إمساءٍ وإشراقِ

* * *

أمِنْ ذكرِ صخرٍ دمعُ عينكِ يَسْجُمُ ... بدمعٍ حثيثٍ كالجُمانِ المنظَّمِ (٤)
فتًى كان فينا لم يرَ الناسُ مثلهُ ... كَفالاً لأمٍّ أو وكيلاً لمحْرَمِ
كأنَّ بُغاةَ الخيرِ عندكَ أصبحوا ... على نَهجٍ من طافحِ البحرِ خِضرمِ
إذا ذكرتْ نفسي نَداهُ وبأسَهُ ... تحسَّرَ عنها كلُّ عيشٍ وأنعُمِ

* * *

ألا ما لعينكَ لا تَهْجَعُ ... تُبَكِّي لوَ انَّ البُكا ينفعُ (٥)
كأنَّ جُمانًا هوى مُرْسَلاً ... دموعُهما أو هُما أسْرَعُ
تحدَّرَ وانبَتَّ منه النظا ... مُ فانْسَلَّ من سِلْكه أجْمَعُ

---

(١) «أنيس الجلساء» : ٥٩ .
(٢) المتاريف : تمنّى بهم ذوي الترف
(٣) «أنيس الجلساء» : ٦٣ .
(٤) «أنيس الجلساء» : ٨٢ .
(٥) «أنيس الجلساء» : ٥٤ .

٣ ـ سمات مراثى الخنساء

(ا) الاستهلال بالبكاء ثم تعداد مناقب الفقيد :

وإذا كانت سمات مراثى الخنساء قد اتضحت من العهد الأول ، وغلب عليها أن تستهل بالبكاء ثم تسرع إلى تعداد مناقب الفقيد ، فإننا فى مراثيها المتأخرة نستطيع أن نميز قاموسها الخاص فى الألفاظ والعبارات ، وأن نحدد المعانى التى تدير عليها رثاءها ، على ضوء ما نعرف من مكرراتها .

(ب) التكرار :

وأعرض هنا نماذج من مطالع قصائدها تبين إلى أى حد تشابهت كثيرات منها وتكررت ، حتى ما تكاد تختلف بأكثر من لفظ يستبدل بآخر ، لتسوية صنعة النظم وخضوعاً لحكم القافية .

أعينىَّ هلاَّ تبكيانِ على صخرِ ... بدمعٍ حثيثٍ لا بكىء ولا نَزْرِ

ألا يا عينُ فانهملى بغُدرٍ ... وفيضى فيضة من غير نَزْرِ

أعينىّ ـ فيضى ولا تبخلى ... فإنّكِ للدَّمْع لم تبذلى
وجودى بدمعك واسْتعبِرى ... كسحّ الخليجِ على الجدولِ

أيا عينىَّ ويُحكما استهِلاّ ... بدمعٍ غيرِ منزورٍ ، وعُلاّ

عينىَّ جُودا بدمعٍ غيرِ منزورِ ... وأعْوِلا إنّ صخرًا خيرُ مقبورِ

يا عينُ جودى بدمعٍ غيرِ منزورِ ... مثل الجُمانِ على الخدّين محدورِ

أمِنْ حَدَثِ الأيامِ عينك تهملُ ... تبكّى على صخرٍ وفى الدهرِ مذهلُ

أمن ذكرِ صخرٍ دمع عينك يسجمُ ... بدمعٍ حثيثٍ كالجُمان المنظّمِ

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مسكوبِ   كلؤلؤٍ جالَ فى الأسماطِ مثقوبِ

يا عينُ مالك لا تبكينَ تَسْكابا   إذْ رابَ دهرٌ وكان الدهر ريَّابا

يا عينُ فيضى بدمعٍ منك مغزارِ   وابكى لصخرٍ بدمعٍ منك مدرارِ

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مدرارِ   جهد العويلِ كماءِ الجدول الجارى

ألا يا عينُ فانهمرى وقلَّتْ   لمرزئةٍ أصبتِ بها تولَّت
ألا يا عينُ ويحك أسْعِدِينى   فقد عظمت مصيبتُه وجلَّتْ

ألا يا عينُ ويحك أسعدينى   لرَيْبِ الدهر والدهر والزمن العَضُوض
ولا تبقى دموعًا بعد صخرٍ   فقد كُلِّفتِ دهرَك أن تفيضى

يا عين جودى بالدُّمو   عِ المستهلاّت السَّوافحْ
فيضًا كما فاضتْ غرو   بُ المترعات من النَّواضحْ

يا عين جودى بالدمو   ع فقد جفَتْ عنك المراودْ

يا عينُ جودى بالدُّمو   عِ على الفتى القَرْم الأغَرْ

يا عينُ جودى بالدموعِ الغزارْ   وابكى على أرْوَعَ حامى الذِّمارْ

يا عينُ جودى بدمعٍ منك تَهْمالِ   وعبرةٍ بنحيبٍ بعد إعوالِ
لا تسأمى أن تجودى غيرَ خاذلةٍ   فيضًا كفيضِ غروبٍ ذاتِ أو شالِ

يا عينُ جودى بالدُّموع السِّجولْ   وابكى على صخرٍ بدمعٍ هَمولْ
لا تخذلينى عند جِدِّ البكا   فليس ذا يا عينُ وقت الخذول

يا عين جودى بدمعٍ منك مُهْراقِ   إذا هدى الناس أو همُّوا بإطراقِ

ما بالُ عينك منها الدمعُ مهراقُ   سحًّا فلا عازبٌ عنها ولا راقِ

يا عين بكّي على صخرٍ لأشجانِ   وهاجسٍ فى ضمير القلبِ خزّانِ

يا عينُ بكّى بدمعٍ غير إنزافِ   وابكى لصخرٍ فلن يكفيكه كافِ

ابكى أخاك إذا جاورتهم سَحَرًا   جُودى عليه بدمعٍ غير منزوفِ

أعينيّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيانِ لصخرِ النّدَى

أعيني جودا بالدموعِ على صخرِ   على البَطَل المقدام والسّيد الغمْرِ

عينيّ جَودا بدمعٍ منكما جُودا   جودا ولا تَعِدا فى اليوم موعودا

قذًى بعينك أم بالعين عوّارُ   أمْ ذرّفتْ مذ خلتْ من أهلها الدّارُ

بكت عيني وعاوَدَها قَذاها   بعوّارٍ فما تقضى كراها

ما بال عينك منها دمعها سَرِبُ   أراعَها حَزَنٌ أم عادَها طربُ !

ألا ما لعينك لا تهجَعُ   تبكى لو أنّ البُكا ينفعُ
كأن جُمانا هوى مرسَلا   دموعُهما أو هما أسْرَعَ

* * *

وأضيف إليها بعض نماذج أخرى لهذا التكرار فى غير المطالع :

حمّال ألويةٍ قطّاع أوديةٍ   شهّاد أنديةٍ للوِتْرِ طَلاّبا

جوّاب أوديةٍ حمّال ألويةٍ   سَمْح اليدين جواد غير مقتار

حمّال ألويةٍ هبّاط أوديةٍ   شهّاد أنديةٍ للجيش جرّارُ

شهّاد أندية حمّال ألوية   قطّاع أودية سرحانُ قبعانُ

طويل النّجاد رفيع العما   د ساد عشيرته أمْردا

طويل النّجاد رفيع العما   د ليس بوغد ولا زُمّل

تركتنى وسْط بنى علّة   أدورُ فيهم كاللّعين النّقيلْ

تركتنى يا صخرُ فى فتية   كأنّنى بعدك فيهم نقيلْ

أبكى لصخر إذا ناحتْ مطوّقةٌ   حمامة شجوها ورقاءُ بالوادى

كونى كورقاء فى أفنان غيلتها   أو صائح فى فُزوع النخل هتّاف

لأبكينّك ما ناحت مطوّقةٌ   وما سريت مع السّارى على ساق

إنى تذكّرنى صخرًا إذا سجعتْ   على الغصون هتوفٌ ذاتُ أطواق

فلأبكينك ما سمعت حمامة   تدعو هديلاً فى فروع الغرْقد

وسوف أبكيك ما ناحتْ مطوّقةٌ   وما أضاءت نجومُ الليل للسّارى

(حـ) معانيها تدور غالبًا حول الخسارة العامة للقبيلة ، وتصور المثل الأعلى للفارس العربى :

فإذا تركنا الألفاظ ونظرنا فى معانى الخنساء الراثية ، وجدناها كذلك تتكرر دائرة — غالبًا — حول الجواد الفارس الشجاع ، والحسرة على حامى العشيرة ، ومأوى الأرامل واليتامى ، ومقصد الضيفان ، معبرة بذلك عن ذاتية جماعية ومصورةً المثل الأعلى لفروسية العرب :

فابكى أخاك لأيتام وأرملة   وابكى أخاك إذا جاورت أجنابا
وابكى أخاك لخيل كالقطا عُصبًا   فقدن لمّا ثوى سيْبًا وأنهابا

وابكى أخاك ولا تنسَىْ شمائلَهُ   وابكى أخاك شُجاعًا غير خوّارِ

وابكى أخـاك لأيتـامٍ وأرملةٍ   وابكى أخاك لحقّ الضّيف والجار

فابكى أخاك لأيتام أضرّ بهم   ريبُ الزّمان وكلّ الضرّ يغشانى

وابكى المعمّم زين القائدين إذا   كان الرماح لديهم خالج أشطانِ

ابكى أخاك إذا جاورتهم سَحَرًا   جودى عليه بدمع غير منزوفِ

ابكى المهين تِلاد المال إن نزلتْ   شـهباءُ ترزح بالقـومِ المتاريفِ

وابكى لصخرٍ طوالَ الدهر وانتحى   حتى تَحُلى ضريحًا بين أجبـالِ

وابكيه للطّارقِ المنتـابِ نائله   وفى الحقيقــة والإعطـاء للمـالِ

ومُنْزِل الضيف إن هبّت مجاجاةٌ   ترمى بصمٍّ سريع الخسف رسّافِ

أبى اليتامى إذا ما شتوةٌ نزلتْ   وفى المزاحف ثَبْتٌ غير وجّافِ

وابكى أخًا كان محمودًا شمائله   مثل الهلال منيرًا غـير مغمورِ

وفارس الخيـل وافتـه منيّتـه   ففى فؤادى صَدْعٌ غـير مجبورِ

ابكى أبا حسّانَ واسْـتَعْبِرى   على الجميلِ المستضافِ المُخيلْ

نعْمَ أخو الشتوة حلّت به   أرامــلُ الحىّ غــداةَ البليلْ

ونعم جارُ القـومِ فى أزمـةٍ   إذا التجــا الناس بجارٍ ذليلْ

على صخرَ الأغرّ أبى اليتـامى   ويحـمل كل مَعْشَرة و[illegible]

نعمَ الفتى كان للأضياف إن نزلُوا   وسائلٍ حلّ بعد النوم مكروبِ

فمن لِقِرى الأضياف بعدك إن هم   قُبالَكَ حلّوا ، ثم نادوا فاسمعوا

كعهدهم إذا أنت حىّ وإذ لهمْ   لديك منـالاتٌ ورىٌّ ومشبعُ

والمشبع القوم إن هبّتْ مصرصرة نكباءُ مُغبَرّة هبّت بصرّادِ

ومطعم القوم شحمًا عند مَسغبهم وفى الجدوبِ كريم الجدّ قيسار

حامى الحقيقة والمجير إذا ما خيف حدُّ نوائب الدهرِ
قد كان مأوى كلِّ أرملةٍ ومقيلَ عثرةِ كلِّ ذى عُذر
تلقى عيالَهمُ نوافله فتصيب ذا الميسورِ والعُسْرِ

يا صخرُ مَنْ للخيلِ إذْ رُدّت فوارسُها عجالا
ويلى عليك إذا تهبّ م الريح باردةً شمالا
خير البريّة فى قرى صخر وأكرمهم فعالا

مَنْ لضيفٍ يحُلّ بالحىّ عانٍ بعد صخرٍ إذا دعاه صُياحا
وعليهِ أراملُ الحىّ والسَّفْـ ـرُ ومعترّهم به قد ألاحا
وعطايا يهزّها بسماحٍ وطِماح لمن أراد طماحا

مأوى الأراملِ والأيتامِ إن سغبوا شهّاد أنديةٍ مطعام ضيفانِ
حلف النّدى وعقيد المجدِ أىّ فتى كالليث فى الحربِ لانِكْسٌ ولاوانِ

يا صخرُ من لطراد الخيل إذْ وزعت وللمطايا إذا يشددن بالكورِ
ولليتامى وللأضيافِ إن طرقوا أبياتنا لفَعالٍ منك مخبورِ
ومن لكربة عان فى الوثاقِ ومن يعطى الجزيلَ على عُسْرٍ وميسورِ

حامى الحقيق تخالُه عند الوغى أسدًا ببيشةَ كاشرَ الأنيابِ
ضخم الدسيعة بالندى متدفقًا مأوى اليتيم وغاية المنتابِ

على ماجدٍ ضخم الدّسيعة بارعٍ له سَوْرة فى قومه ما تُحوّلُ

مأوى الضريك ومأوى كل أرملة ... عند المحول إذا ما هبّت القُررِ

يا فارسَ الخيل إذ شدّتْ رحائلها ... ومطعم الجُوَّعِ الهلكى إذا سغبوا
كم من ضرائكَ هُلاّكٍ وأرملة ... حلّوا لديك فزالت عنهم الكُرَبُ
سقيًا لقبرك من قبرٍ ولا برحتْ ... جودُ الرواعد تسقيه وتحتلبُ
ماذا تضمّن من جودٍ ومن كرمٍ ... ومن خلائقَ ما فيهن مقتضبُ

ألا ثكلتْ أمُّ الذين مشوا به ... إلى القبرِ ماذا يحملون إلى القبرِ
وماذا يُوارِى القبر تحتَ تُرابه ... من الخيرِ يا بؤس الحوادث والدهرِ

يا صخرُ كنت لنا عيشًا نعيش به ... لو أمهلتكَ مُلمّاتُ المقاديرِ
يا صخرُ ماذا يوارى القبرُ من كرم ... ومن خلائقَ عفّاتٍ مطاهيرِ

وهى فى هذا كله شاعرة قبيلة ، تبكى سيد القوم وزين العشيرة ، وتقدم لنا الصورة المثالية للفارس العربى فى الجاهلية ، وإذا كنا قد لاحظنا عليها التكرار اللفظى والمعنوى ، فهل معنى هذا أن شاعريتها قد جفت ونضبت فى الفترة المتأخرة من حياتها ، فلم تعد تجود عليها برائعة ؟ كلا ، فليس من الطبيعى أن تعقم هذه الشاعرية التى رأيناها تبلغ بالخنساء ذروة المجد الفنى ، وإنما ظلت تجود من حين إلى حين ، بمقطوعات بالغة الجمال ، وذلك حين تنزع الشاعرة فى بعض حالات تأملها إلى الاستبطان النفسى ، وتجتر أشجانها الكبار ، فتنكأ جرحها العميق ، وينبعث الشعر من أعماق وجدانها فياضًا بالأسى ، ذاخرًا بالحيوية والشجن :

لا تخلْ أنّنى لقيتُ رَواحًا ... بعد « صخر » حتى أثبن نواحا
من ضميرى بلوعة الحزن حتى ... نَكَأَ الحزنُ فى فؤادى فَقاحا
لا تخلْنى أنى نسيتُ ولا بُلّ ... فؤادى ولو شَربتُ القَراحا
ذِكر صخرٍ إذا ذكرتُ نداهُ ... عِيلَ صبرى برزئه ثم باحا
دَقّ عظمى وهاضَ منى جَناحى ... هلكُ صخرٍ فما أطيقُ بَراحا

تذكَّرتُ صخرًا إذ تغنّتْ حمامةٌ هتوفٌ على غصن من الأيْك تسجعُ
فظلْتُ لها أبكى بدمعٍ حزينةٍ وقلبى مما ذكّرتنى مُوجَعُ

تذكّرنى صخرًا وقد حال دونه صفيحٌ وأحجارٌ وبيداءُ بَلْقَعُ
أرى الدّهرَ يرمى ما تطيش سهامُه وليس لمن قد غاله الدهرُ مرجعُ

ألا مَنْ لعين لا تجفُّ دموعُها إذا قلتُ: أفْثَتْ، تستهلّ فتحفلُ[1]
فما بلغتْ كفُّ امرئٍ متناول من المجد إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ
ولا بَلَغَ المُهْدون فى القولِ مدحةً ولا صَدَقوا إلا الذى فيك أفضلُ[2]

وقائلين: تَعَزَّ عن تذكّره فالصبرَ، ليس لأمر الله مردودُ
يا صخرُ قد كنت بدرًا يستضاءُ به فقد ثوى يوم متَّ المجدُ والجودُ
فاليوم أمسيتَ لا يرجوك ذو أملٍ لما هلكتَ وحوض الموت موْرودُ

يؤرّقنى التذكرُ حين أمْسِي فأصبح قد بُليتُ بفرط نكسِ
على صخرٍ وأىّ فتًى كصخرٍ ليوم كريهةٍ وطعان حِلْسِ
فلم أرَ مثله رزءًا لجنٍّ ولم أرَ مثله رزءًا لإنْسِ

. . . .

يذكّرنى طلوعُ الشمس صخرًا وأذكره لكل مغيب شمْسِ
ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يبكونَ مثل أخى ولكن أعزّى النفسَ عنه بالتأسّى
فلا والله لا أنساكَ حتى أفارقَ مهجتى ويُشقّ رمْسِي
فقد ودّعتُ يومَ فراقِ صخر أبى حسّانَ لذّاتى وأنْسِي
فيا لهفى عليه ولهفَ أمّى أيُصْبحُ فى الضريحِ وفيه يُمْسى؟

* * *

---

(١) أفثت: أصله أفثأت بالهمز أى صارت إلى الانكسار.

(٢) هذا المعنى أخذه أشجع بن عمرو السلمى فقال فى بعض البرامكة:

وما تركَ المداح فيك مقالة ولا قال إلا دون ما فيك قائل

انظر الشعر والشعراء: ٢ / ٨٦١.

وبعد فإذا كان ما شاب مراثى « الخنساء » المتأخرة من تكلف وتكرار قد جنى على الشاعرة ، فإن ضيقنا به لا ينبغى أن يتجاوز مداه ، ويحرم « الخنساء » حقها فى التقدير المنصف . فلنا أن نقول إن الخنساء قد ازدهادها إعجاب القوم بمراثيها ، واستمرأت طعم التغنى بأشجانها فراحت تنكأ جراحها عامدة ، وتجهد قريحتها لتسعفها بجديد من المراثى فى « صخر » بعد أن بعُد به العهدُ وتراخى الزمن . وألجأها هذا إلى تكرار ألفاظها ومعانيها ، وما كان لنا أن ننتظر أن تنجو من مثل ذلك ، إذا قدرنا كثرة مراثيها من ناحية ، وقصرها على « صخر » فى الفترة الأخيرة من ناحية أخرى .

وبقى للخنساء مع ذلك ما يكفى لأن يحفظ لها مكانها المرموق بين شعراء العربية ، وبحسب الناقد المنصف أن يهدر المكرور المعاد من شعرها ، ليجد للخنساء بعده ما يغنيها عن مزيد .

٤ ـ الميراث الشعرى

ولا أريد أن تمر هذه المناسبة ، دون أن أشير بإيجاز إلى الميراث الشعرى فى بيت الخنساء .

فتماضر قيسية ، وقد اشتهرت قيس بالفروسية والشعر ، وفيها يقول « الأصمعى « أفى الدنيا مثل فرسان قيس وشعرائهم » [١] .

وتماضر سلمية ، ولسليم ديوان شعر قديم ، ذكره « أبو بشر الآمدى » [٢] ومن شعرائهم : خفاف بن ندبة ، وحيان بن حكيم ، وأبو كنانة السلمى ، وعامر بن محكان[٣] ، والجحاف بن حكيم السلمى[٤] . وضمضم بن الحارث السلمى[٥] .

وقد كان « عمرو السلمى » أبو الخنساء ، شاعراً [٦] .

وكان « صخر » أخوها شاعراً ، حفظت كتب الأدب عدداً من قصائده ، وقد نقلنا منها فى هذا الكتاب ، ما اتصل بأخته تماضر .

وقد تلقت الخنساء ، كما تلقى أخوها صخر ، هذا الميراث الشعرى العريق ، فكانت شاعرة العربية الأولى ، ثم أورثته بنيها من بعدها ، فكانوا كلهم شعراء !

وقد مر بنا خبر بنيها الأربعة ، الذين استشهدوا فى موقعة القادسية ، وما روى لهم من شعر يومئذ [٧] .

---

(١) فحولة الشعراء : ٣٥

(٢) المؤتلف والمختلف : ١٧ ط القدسى

(٣) حماسة البحترى : صفحات ٥٠ ، ٨٤ ، ٣٤٩ – والأغانى ١٦/١٣٤

(٤) ابن هشام : السيرة ٤/٧٥

(٥) ابن هشام : السيره ٤/١١٣ ، ١١٤

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ١/٢٨٩ ت السندوبى

(٧) الاستيعاب والإصابة : ترجمة الخنساء

وكان ابنها « أبو شجرة بن عبد العزى » شاعراً ، كما نص على ذلك النسابون [١] والإخباريون . وقد نقل « الطبرى » قصيدته الرائية فى حروب الردة ، ونقل كذلك أبياتاً من قصيدة له قالها وهو ينصرف هارباً من مجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لما ذكر قوله :

ورويت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا [٢]

وابنها « العباس بن مرداس » شاعر مشهور فى الجاهلية والإسلام . ترجم له أبو الفرج الإصبهانى فى (الأغانى) والمرزبانى فى (معجم الشعراء) وابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) . واختار أبو تمام عدداً من قصائده فى (الحماسة) كما اختار له البحترى فى (حماسته) ثمانى قصائد .

وقد كان « العباس بن مرداس » شاعر يوم حنين غير المنازع ولا المنافس ، ويكفى شاهداً ، أن يروى له «ابن هشام» عشر قصائد طوال جياد ، فى يوم حنين وحده [٣] ، مما يدل على شاعرية خصبة مواتية .

ولم يتخلف هذا الميراث الشعرى ، فى بنت الخنساء « عمرة بنت مرداس » الشاعرة التى وعى ديوان الشعر العربى مراثيها فى أبيها مرداس ، وأخويها ، وولدها الأقيصر .

وكم آسف لأن المجال المحدد لهذا الكتاب ، يقصر إلا عن إشارة عجلى لذلك الميراث الشعرى الأصيل الذى تلقته « الخنساء » عن آبائها السلميين وقبيلتها قيس عيلان مضر ، ثم أسلمته إلى ولديها أبى شجرة بن عبد العزى ، والعباس بن مرداس ، وبنتها عمرة بنت مرداس .

وإنه لجدير بأن يكون موضع دراسة خاصة لهذا البيت الشاعر : بيت الخنساء . . .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ٢٤٩ – ونسب قريش ٣٢٠ – ذخائر

(٢) تاريخ الطبرى : حوادث سنتى ١١ ، ١٣ هـ

(٣) السيرة : جـ ٤ من صفحة ٩٣ : ١١٣

الفهرس

الفصل الأول
عصر الخنساء

الفصل الثانى
الخنساء فى عصرها

الفصل الثالث
الخنساء الشاعرة

الفصل الرابع

منتخبات من شعرها

سمات مراثى الخنساء

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

مجموعة نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر و بلد ؛ فهى تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه ؛ فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض .

● ظهر منها :

١ — ابن رشد
٢ — الجاحظ
٣ — الشيخ نجيب الحداد
٤ — محمود سامى البارودى
٥ — ابن زيدون
٦ — الشيخ ناصيف اليازجى
٧ — إخوان الصفاء
٨ — بشار بن برد
٩ — بديع الزمان الهمذانى
١٠ — أبو الفرج الأصبهانى
١١ — ابن الرومى
١٢ — الفرزدق
١٣ — السهروردى
١٤ — الشيخ إبراهيم اليازجى
١٥ — المتنبى
١٦ — البحترى
١٧ — الخنساء
١٨ — ابن قتيبة
١٩ — جرير
٢٠ — ابن المقفع
٢١ — أبو حيان التوحيدى
٢٢ — عبد الرحمن الكواكبى
٢٣ — ابن سينا
٢٤ — رفاعة رافع الطهطاوى
٢٥ — خليل مطران
٢٦ — ولى الدين يكن
٢٧ — صفى الدين الحلى
٢٨ — البهاء زهير
٢٩ — جمال الدين الأفغانى
٣٠ — تقى الدين بن حجة الحموى
٣١ — الفارابى

ثمن النسخة ١٥ قرشاً